أعمال "السلطانة خرم" الخيرية

أفضل الأعمال الخيريّةِ هو تأسيسُ وقفٍ

لقد كانت الدولة العليّة تستوعب الناس من كلِّ دينٍ ومذهبٍ وعِرقٍ، رجالًا ونساءً، وتصبغهم بصبغتها، وبذلك جعلت كثيرًا من الأشخاص الذين نشؤوا في بيئات مختلفة وينتمون إلى أفكار متباينة، يخدمون الإسلام والقرآن.

لقد أصبحت "السلطانة خُرَّم" بالنسبة للسلطان "القانوني" هي السلطانة المُقَرّبَةُ إلى قلبه، فصارت بذلك سيدةَ القصر الأُولَى، أما "السلطان سليمان" فهو باعترافِ المُؤَرِّخين الغربيّينَ والأتراك على حدٍّ سواء، يُعتَبَرُ واحدًا من أقوى حُكَّام العالَم على مرِّ التاريخ.

لقد استطاعت "السلطانة خُرَّم" التي كان "السلطان سليمان" شغوفًا بها ويُكِنُّ لها حبًّا شديدًا، أن تحيا حياةً سعيدةً مليئةً بالهناء والسرورِ، ورغم أنها لم تكن لديها أيّةُ أطماعٍ دنيويّةٍ، فقد سَعَتْ من أجل نَيلِ رضا الله ﷻ[١٣١] وشفاعةِ الرسول ﷺ ببناء الكثيرِ من الأوقافِ الخيريّةِ، تحدوها الرغبة في خدمة الإنسانية والمجتمع[١٣٢].

* * *

(١٣١) ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (سورةُ البَقَرَةِ: ٢/٨٢).

(١٣٢) رُوِيَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: "إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ". (مسلم، الوصية، ١٤).

لا يوجد شك في أن إنشاء الأوقاف من أفضل الأعمال الخيرية التي تبقى للإنسان، إن الوقف يظلّ مستمرًا في القيام بواجبه بلا انقطاع حتى بعد موت صاحبه، ولا يتوقف ما دامت الدنيا قائمة.

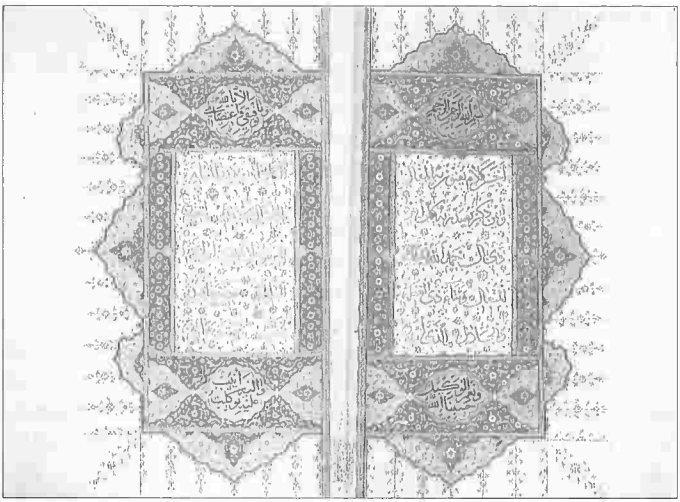

الصفحتان الأولى والثانية في لائحة وقف "السلطانة خُرّم" (أرشيف وزارة الأوقاف، رقم-٢٨/K)

ولقد أُشـيرَ في لائحةِ الوقفِ الذي بَنَتْهُ "السـلطانة خُرَّم"، وهي سـيدةٌ ناضجةٌ في سنّ السادسةِ والثلاثين من عمرها، عام (١٥٤٠م/٩٤٧هـ)، إلى عجزِ الإنسـانِ أمـام القدرة الإلهيّةِ، وإلى أن الحياةَ فـي الدنيا قصيرةٌ، كما بين غمضةِ عينٍ وانفتاحِها.

والكلمـات التاليةُ في لائحة وقف السـلطانة "خَاصَكِي" تُبَيّن لنا مدى حُبّهـا لِعَمَـلِ الخير والمعروف، وقَدْرَ ما تَمَتَّعَتْ به من حماسـةٍ وجهدٍ في هذا الصدَدِ:

"لقـد أَغْدَقَ ذلك الوَقْـفُ بالنِّعَمِ والخيرات على كلِّ الأهالي، كما بُسِطَتْ موائدُ الخير في شتّى البقاعِ، لقد كانت نِعَمُ ذلك الوَقْفِ وافرةً منتشـرةً، كالأنهار التي ينال كلُّ إنسـانٍ نصيبَه منها، ونَدُرَ مَنْ لم يَنْهَلْ مِن مَعِين هذه النعم والخيرات الوفيرةِ، وكان الناس يأتونَهُ من كلّ حَدَبٍ وصَوْبٍ، ومن كل مكانٍ قريبًا كان أم بعيدًا".

"لقد أرادت السـلطانة أن تسـتمر خيرات هذا الوقف الوفيرةُ، وأن تظـلَّ متوفِّرة ومفتوحةً أمام الفقراء والمحتاجين بدون انقطاع إلى يوم القيامة".

"اللهم لا تَقْطَـعْ غَيْثَ إحسـانِها عن السائِلِينَ، ولا تَحْرِمْ أحدًا كَرَمَهـا، ولا تَـرُدَّ أَحَدًا خَـاوِيَ الوِفَاضِ مِن عندهـا، ولْيَهْطِلْ على الناس إحسانها ومَدَدُها كالأمطار المباركة المُتَتَابِعة"(١٣٣).

المجمع الذي بُني مكان سوق "أَوْرَتْ (*Avrat*)"(١٣٤)

كان "السـلطان سـليمان" الـذي حكم أرجـاء المعمـورة، مـع زوجته

(١٣٣) نِعْمَة طَاشْكِيرَانْ (*Taşkıran*)، كتاب " حصاكي "، إسطنبول – ١٩٧٢، ص ٤٢-٤٣.

(١٣٤) أَوْرَتْ: تعني بالتركية المرأة ، ولقد تغير اسم المكان هذا وتعاقبت عليه أكثر من تسمية، وهو الآن يشتهر باسم منطقة الفاتح. (المترجم)

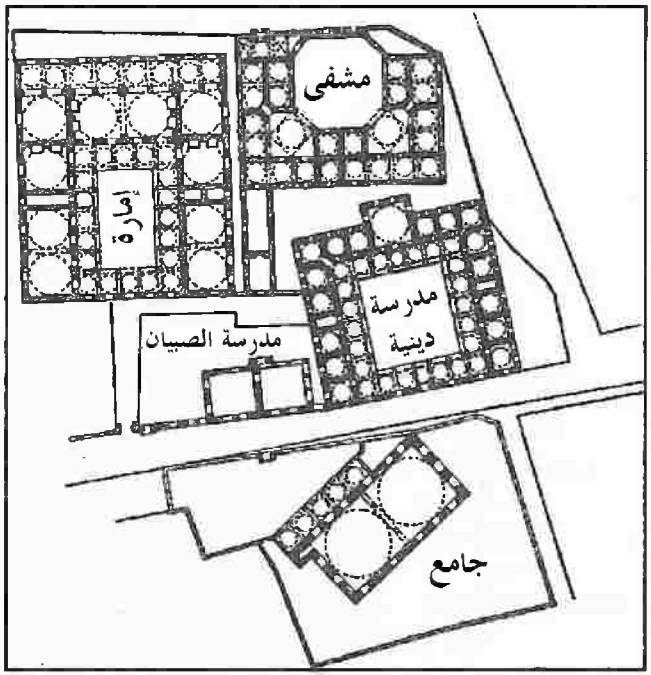

مخطط مجمّع "خَاصَكِي السلطانة خُرّم" في "خَاصَكِي/إسطنبول"

"السلطانة خُرَّم" أثناء الإشراف على بناء مجمع "خَاصَكِي"، ولم يَتَوَانَ عن تقديم الدعم المطلق إلى زوجته؛ من أجل إنجاح هذا المشروع.

وكان المهندسُ التركيُّ الذي عُهِدَ إليه بمهمةِ إنشاءِ هذا المُجَمَّعِ، وخلد ذِكْرُه، هو المعماري الكبير "سِنَان"، ذلك الفنان المعماري الذي عمَّتْ شُهرتُه الآفاقَ(١٣٥).

بُنِيَ "مجمع خَاصَكِي" في ميدان "أركاديوس (*Arkadius*)" الذي يُعتَبر واحدًا من أربعِ ساحاتٍ رئيسيَّةٍ في إسطنبول في عهد البيزنطيين(١٣٦)، حيث تقع هذه المنطقة على إحدى هضاب إسطنبول السبعة.

وقد سُمِّيَ هذا الحيُّ بعد فتح إسطنبول باسم حي "باشجي حاجي (*Başçı Hacı*)"،(١٣٧) ثم أصبح يطلقُ عليه بعد تَشْيِيدِ بناياتٍ وعمائرِ الأوقافِ اسمَ سوق "أَوْرَتْ (*Avrat*)" أي: النساء(١٣٨).

وظلت المنطقةُ تحمل هذا الاسمَ لمدَّةٍ تزيدُ عن أربعمائة عام، حتى أواخرِ القرنِ التاسع عشر.

(١٣٥) لقد كان المجمع الخيري الذي أنشأته "السلطانة خَاصَكِي"، هو أول الأعمال التي قام بها "سِنَان" بعد أن تم تعيينه كمهندس معماري؛ حيث استطاع هذا المجمع أن يقدم إلى الفن المعماري إضافة متميزة ومختلفة.

(١٣٦) أقام الإمبراطور البيزنطي "أركاديوس" في هذا المكان عام (٤٠٣م) بإقامة عمود بارتفاع أربعين مترًا؛ ليحمل اسم والده "ثيودوس"، أما ابنه "ثيودوس الثاني" فقد قام بوضع تمثال لوالده بجوار العمود، ويمكن أن ترى بقايا هذا العمود اليوم في المنطقة نفسها؛ حيث تبدو في صورة كتلة حجرية.

(١٣٧) كان طَبَّاخ الكِرَاعِ "الحاج محمود" هو كبير طهاة الكِرَاع لدى السلطان "الفاتح"، وكان من الشخصيات المعروفة في ذلك العصر، وقد قام ذلك الشخص فيما بعد بإنشاء مسجد صغير في المنطقة التي تحمل اسمه، لكن هذا المسجد احترق تمامًا في الحريق الذي وقع عام (١٩١٨م).

(١٣٨) بعد أن تم تأسيس المجمع، أمر السلطان "سليمان القانوني" بتأسيس سوق للنساء في المنطقة نفسها، وقد فُهِمَ هذا الأمر على مَحْمَل اللُّطْف من قِبَل السلطان تجاه زوجته، وبناءً على ما يذكره "ممبوري (*Mambouy*)" الذي ألَّف كتاب "دليل إسطنبول": إن هذه السوق المفتوحة التي تُعرَف باسم سوق "أَوْرَتْ" التي ترتادها النساء على وجه الخصوص من أجل البيع والشراء، كان يتم العمل بها في أحد أيام الأسبوع، وذلك في المنطقة السالف ذكرها، إن مصطلح سوق "أورت" لا يشير إلى بقاء بيع الجواري فيه على ذلك الوقت أو أنه سوق تباع فيه النساء الأسيرات.

لقد صار "حيُّ خَاصَكِي"(١٣٩) حيًّا محبوبًا ومميّزًا منذ عام خمسمائة ميلاديّة حتى يومنا هذا.

ولم يكن من قَبيلِ الصدفةِ أن يقومَ السلطان باختيار هذه المنطقةِ من أجل تخليد ذكرى محبوبتِهِ السلطانه "خُرَّم" التي أُغْرِمَ بها.

إن هذه المنطقة التي أحبَّها البيزنطيون قد تعلَّق بها العثمانيون أيضًا.

* * *

وقد بدأت مجموعةُ أبنيةِ "خَاصَكِي" بجامعٍ صغيرٍ ذي قُبّةٍ واحدةٍ في سوق "أَوْرَتْ" من عام (١٥٣٨م)، ثم توسَّعت في العام التالي لذلك التاريخ؛ حيث أُلحِقَت بها مدرسة دينيَّةٌ ومدرسةٌ للصبيان(١٤٠).

وقبل الانتهاء من بناء كلٍّ من مجمع "شهزاده (*Şehzâde*)" الخيري، ومجمع "السليمانية" كان "مجمع خَاصَكِي" قد صار مركزًا اجتماعيًّا كبيرًا بعد أن أُضيفَ إليه مشفى ودار لإطعام المحتاجين.

وقد كان الجامع في شارعٍ مُحاذٍ لـ"مجمّع خَاصَكِي" بالقُرْبِ منه، أما المدرسةُ الدينيّةُ، ومدرسةُ الصبيان، والمشفى، ودارُ إطعامِ المحتاجين، فعلى الجانبِ الآخَرِ منه.

كلمة "محمد" بالخط الكوفي

إن الجوامع في المجمّعات العثمانيّة الخيريّة، تُعتبرُ هي البناء الرئيس في المُجَمَّعِ أو الوقف، وكان النظام المُتَّبَعُ أن تشيَّدَ حولَ الجامعِ وفي محيطه باقي البنايات المُلحَقة بذلك الوقف.

(١٣٩) لقد أخذت هذه المنطقة اسم "خَاصَكِي" مع بداية القرن العشرين.

(١٤٠) "دُوغَانْ كُوبَانْ (*Doğan Kuban*)"، "مجمع خَاصَكِي" موسوعة إسطنبول من الأمس إلى اليوم، إسطنبول - ٢٠٠٣م، الجزء الرابع، ص ٥.

المنظر العام لمجمّع "خَاصَكِي السلطانة خُرّم" في "خَاصَكِي/إسطنبول"

وبِنـاءً علـى لوحـة جامـع "خَاصَكِـي"، المحفوظـةِ اليومَ فـي متحفِ "جِينِيلِـي كُوشْـكْ (*Çinili Köşk*)" بقصـر "طوب قابي"، فقد شُـيِّدَ الجامـعُ فيما بين عامَيْ (١٥٣٨/١٥٣٩م).

وفي هذه اللوحةِ المنقوشـةِ، يُذكَر بشـكلٍ وجيزٍ المراحلُ التي مَرَّ بها الجامـع، على النحو الآتي:

> "لقـد شُـرِعَ في بنـاء هذا الأثر مـن قِبَل "السـلطانة خُرَّم" عام (١٥٣٨م/٩٤٥هـ)، وقـد تطوَّعـت السـلطانةُ وبشـكلٍ خيـريٍّ في تجهيزِهِ بالكامل، وبسبب ضيقِ المكان، وعدمِ اتّساعِ الجامـع لأداء صلاةِ الجماعة، فقد تَمَّتْ توسعتُه، بإضافة قُبَّةٍ أخرى، بفضل جهود "حسن بك" المسؤول عن الوقف في عهد السلطان "أحمد الأول" عام (١٦١٢م)، وذلك بعد مُضِيّ أربعة وسـبعين عامًا على إنشائه، وتـمَّ إجراء هذا التعديل مـن قِبَل المهنـدس المعماري "صدفكار (*Sedefkâr*) محمد آغَا"[١٤١].

* * *

كان جامـع "خَاصَكِـي" يُشـبه قبـل ترميمِهِ الجوامـعَ العثمانيَّـةَ التي شُـيِّدَت قبلـه. أي: إنه كان عبارةً عن قُبَّة واحدةٍ مُشَـيَّدةٍ فـوقَ مكانٍ مربَّـعِ الشكلِ، وكان يُستخدَم تعبير "جامـع ذو قبّةٍ واحدةٍ" من أجل الإشارة إلى هذا الطِّرَازِ من الجوامـع العثمانية.

عنـد الوصـولِ إلى مدخلِ الجامـع، وبعدَ اجتيازِ بـابِ الحديقةِ، نجدُ أمامَنا مكانَ الصلاة، ورُوَاق الجامـع الذي تحمله ستةُ أعمدةٍ -وقد انمحى جمالهـا المعمـاري؛ جـرّاء إقفالِ المسـافاتِ التي بينها بالزجـاجِ والحديدِ حاليًـا- وقد كانت هذه الأروقةُ تغطّي فحَسْـب الجـزءَ الأماميّ من المكان القديم ذي القبّةِ الواحدةِ، الموجود في هذا الجامـع والذي تمّ تشـييدُه في

(١٤١) "سَمَا دُوغَانْ (*Sema Doğan*)"، "مجمع خَاصَكِي"، الموسوعة الإسلامية، هيئة الديانة التركية، إسطنبول – ٢٠٠٣م، الجزء السادس عشر، ص ٣٧٠.

عهدِ السلطانِ القانونيّ، يعني أنه لا يوجد رُوَاق أمام القسم الإضافي الذي أُنشِئَ وأُضيفَ بعد ذلك بإلحاق قبّة أخرى في عهد السلطان "أحمد الأول".

* * *

مسجد "خَاصَكِي السلطانة خُرّم" في "خَاصَكِي/إسطنبول"

وداخلَ البابِ الرئيسي لجامعِ السلطانة "خَاصَكِي" ذي الشكل المستطيل، نجدُ أنَّه تمَّ عملُ باب ثانٍ أصغرَ قليلًا، وقد زُيِّنَ هذا البابُ الثاني، وكُتب على جوانبه بالخطِّ الكوفيّ ناحيةَ اليمينِ عبارة: "لا إله إلا الله"، أما على اليسارِ فقد كُتِبتْ كلمة محمد ﷺ أربعُ مرّاتٍ بشكلٍ مستديرٍ.

ويُلاحَظُ أن محاريبَ الجوامعِ العثمانيَّة تكونُ في منتصفِ حائطِ القِبلةِ دائمًا، وعندما كان جامع "خَاصَكِي" ذا قُبَّةٍ واحدةٍ، فقد كان مِحراب المسجد واقعًا في منتصف حائطِ القِبلةِ، لكن بعد أعمال التوسيعِ التي أُجريت للجامع، فقد تمَّتْ زيادةُ طولِ حائطِ القبلةِ بمقدارِ الضعفِ، ونتيجةً لهذه الزيادةِ في الطولِ، فقد أصبحَ من الضروريّ أن يتغيَّرَ مكانُ المحراب أيضًا حيث أُلْغِيَ مكانُه الأصلي بإحلال عمودٍ كبيرٍ محلَّهُ، ليُصْبِحَ موضعُ المحرابِ الجديدِ في مكانٍ آخرَ، وليقعَ متوسطًا بين القُبَّتَينِ.

هل المعماري "سِنَان" هو من أنشأ الجامع؟

إن عملية توسيع جامع "خَاصَكِي"، وما صاحبها من إضافة مساحة جديدة للجامع، أدَّت إلى تغيير مكان المحراب الأصلي، وحدوث تحوُّل في شكل الجامع من الشكل المربّع إلى الشكل المستطيل، ويمكن أن نقول بتعبيرٍ آخر: إن الشكل الخارجي للجامع قد أصابه شيء من الانحراف عن نَسَقِهِ القديم.

ففي حين كان طول حائط المحراب القديم (١١,٦٥) مترًا، فقد صار طول الحائط الجديد (١١,٩٠) مترًا، وبما أن طولَ كلِّ حائطٍ من الحوائطِ المتبقية في الجامع هو (١١,١٠) مترًا، فهذا يعني أن القسم الجديد الذي تمَّت إضافته يعتبر أكبر إلى حدٍّ ما.

إن الأعمدةَ التي تمَّ رَفْعُها بين كلا القِسمين قد أَفسدتْ شكلَ الجامع، وهو ما يمكن اعتباره نتيجةً حتميّةً من الناحيةِ الهندسيّةِ، كما أَحْدَثَت إضافةُ قسمٍ جديدٍ إلى الجامع انتقالَ موضعِ جلوسِ السلطانِ العثمانيّ، ليصبحَ في القسمِ الجديدِ، في حين ظلَّ المنبرُ كما هو في المكان القديم.

وعلى هذا النحو، فإننا إذا نظرنا إلى الجامع من ناحية الفِناء، يتَّضِح لنا بشكلٍ جليٍّ ذلك المكان الذي ضُمَّ فيه القِسمانِ القديم والجديد معًا.

* * *

تتَمَيَّزُ البناياتُ التي يضمُّها "مجمَّع خَاصَكِي" بأنها على النمطِ ذاته، وتتشابه فيما بينها، بينما نجدُ مجمع البنايات في الوقت نفسه بعيدًا من ناحيةِ التصميمِ عن جامع "خَاصَكِي"، وبمعنى آخر: فإن الجامعَ لا يُشبه أعمالَ المهندس المعماري "سِنَان"، سواءٌ أكانت أعماله السابقة أو اللاحقة.

إن هذا الجامع الذي بُنِيَ وشُيِّدَ تحت رعاية "السلطانة خُرَّم" هو بعيدٌ -من ناحيةِ الفنِّ المعماريّ- كلَّ البُعدِ، عن أن يُعَدَّ من ضمنِ الأعمالِ الرائعةِ التي صمَّمها وأبدعها المعماريُّ العظيم "سِنَان" ولذلك فنحنُ لا نستطيعُ أن ننسُبَ بناء هذا الجامعِ إليه.

وثَمّةَ دليلٌ آخر على أن هذا الجامع ليس من أعمال "سنان"، وهو كونه ضعيفًا جدًّا إلى جوار الجوامع التي أمر السلطانُ "القانوني" وزوجته "خُرَّم" "سنانًا" بتشييدِها باسم أفراد عائلتيهما، بالإضافةِ إلى أنه لا يحملُ قيمةً من الناحيةِ المعماريّةِ.

كما لا يمكن أن نَعْقِدَ مُقارَنةً بين هذا الجامع وبين جامع "السُّلَيْمانيَّة" أو جامع "السَّلِيميَّة" اللذَينِ يُعَدَّانِ على رأسِ الأعمالِ الرائعةِ والفريدةِ

الخاصَّةِ بالمعماريّ "سِـنَان"، ولكن إذا دقّقنا النظر في هذه الأبنية فإننا نجد بعض بناياتِ المجمّعِ، سـواءٌ أكانت بناية المعهد أو دارُ إطعامِ المحتاجين أو المشـفى أو المدرسـة، نجد بعضها يحمل طابَعَ وبصمةَ "سِـنَان" بشكلٍ قَطْعِيّ، عندها يمكن القول بأن بعض ملحقات الجامـع -وليس كلِّها-، مثل: المِئْذَنَةِ، والأرْوِقَةِ، والصُّفَّة الأخيرة، هي من أعمال "سنان" فقط [١٤٢].

هـذا، وقـد تم تعيين المعماري "سِـنَان" في الأسـاس عـام (١٥٣٩م) كبيرًا للمهندسينَ المعماريّين لاستكمالِ إنشاءِ هذا الجامـع؛ لأن التصميمَ الهندسـيَّ الخاصَّ بجامـع الوقفِ لم يَحْظَ بالإعجابِ المطلوبِ، فقد كان ذلك التصميمُ فاشلًا من الناحيةِ الجماليّةِ في ذلك الوقت؛ فتحوّلت مهمَّةُ إكمـالِ بنـاءِ الجامـع إلى "سـنان" بعـد أن أُعفيَ باقي المهندسـين من هذه المُهِمَّة، فجاءَ "سِنَان" وحاولَ جاهدًا من أجل أن يُنقِذ على الأقلّ الواجهةَ الخارجيّـةَ للجامـع، مُنشِـئًا قُبَيلَ الانتهاء من أعمال بناءِ المسـجدِ أقسـامَ المَنَـارَةِ والأَرْوِقَـةِ ومـكان الصُّفَّة، حتـى إذا اكتمل بناء الجامـع عُهِدَ إلى "سِنَان" مهمَّة إنشاءِ واستكمالِ باقي الأبنيةِ المُلحَقةِ بالمجمَّع.

اللوحاتُ الخزفيَّةُ المفقودةُ

تعتبر المدارس الدينيَّةُ من الأقسام التي لا يمكن إغفالُها في المجمَّع؛ إذ إن هذه المدارس تُعَدُّ بحقٍّ نماذجَ مُعبّرةً عن مدى الاهتمام الذي أَوْلاه حُكّامُ ذلك العصر بالعِلْم والمعرفة[١٤٣].

(١٤٢) طَاشْكِيرَانْ، المصدر السابق، ص ٩٩-١٠٠.

(١٤٣) كانت تعطى الأهمية في المقام الأول لبناء المدارس الدينية بين المؤسسات التي تبنى حول المسجد وذلك في الآثار العثمانية الأولى التي توجد في " إسطنبول " أو تلك التي نجدها في مراكز الدولة القديمة مثل " إزنيك (*Iznik*) " و"بورصه (*Bursa*) ". ويعتبر إنشاء أربعة مدارس في مجمع " السليمانية " وثمانية مدارس في مجمع " فاتح " بإسطنبول دليلًا واضحًا على الأهمية التي كانت تمنح للعلم، وكان يتم ترتيب المدارس بناء على مستواها العلمي، حيث كانت مدارس " ثمانية " هي أعلى المدارس مرتبة بين مدارس إسطنبول، وكان يليها مباشرة مدارس " السليمانية " و"خَاصَكِي"، وعند تعيين المدرسين في هذه المدارس لم يكن يسمح إلا فيما ندر بالانتقال الفجائي إلى المراتب العليا دون المرور بالمراتب الأولى.

وفي عام (١٥٣٨م)، بعد أن تم الانتهاء من بناء الجامع، ذلك البناء الأوَّل في مجمَّع السلطانة "خَاصَكِي"، شُرِعَ في بناء المدرسة الدينية، ويُعتَبر هذا الأثَرُ من الأعمال العظيمة التي خَلَّفَها لنا "سِنَان"، ويُعَدُّ بحقٍّ نموذجًا رائعًا في فن رسم المُنَمْنَمَات، ومن خلال الكتابة المُدوَّنة على باب مدخل المدرسة يتَّضِحُ لنا أن هذه المدرسة الدينيَّة قد تَمَّ إنشاؤها في عام (١٥٣٩م)، لكن هذه الكتابة لم تعدْ موجودةً الآن كما كانت في سابق عهدها بل أصبحَ مكانُها خاويًا، وصارت هذه الكتابةُ معروضةً الآن في متحفِ "جِينِيلِي كُوشْكْ (*Çinili Köşk*)"، بحيث نراها هناك وهي مزدانة بقِطَعٍ بديعةٍ ورائعةٍ من الخَزفِ، الذي يعودُ إلى القرنِ السادسَ عَشَرَ، كما كُتِبَ تاريخ إنشاءِ هذه المدرسةِ الدينيَّةِ مرَّةً ثانيةً بحِسَاب الجُمَّل[١٤٤] في البَيت الشِّعْريّ الأخيرِ الموجودِ على هذهِ اللوحةِ الخَزَفِيّةِ، وفوق هذه القطعة الخزفيَّةِ -التي يعلوها جُزءانِ ناقصان من جَرَّاء كَسْرٍ لَحِقَها- نَجِدُ كَلِماتٍ قد كُتِبَتْ؛ نحو:

"يا قاضيَ الحاجات... يا مُجِيبَ الدَّعَوات... يا وَلِيَّ الحسنات... يا رحمن... يا رحيم..."

بحروفٍ كبيرةٍ بيضاءَ ذاتِ خلفيَّةٍ زرقاء، وتبدو أمامنا هذه الكتابة وقد أُحِيطَتْ بإطارٍ رقيقٍ لتزيينِ الحواشي، كما كُتِبَ فوق تلك القطعة الخزفية أيضًا آية الكرسيّ والبسملةِ بلَونٍ أصفرَ يميل إلى الفيروزيّ، أما في منتصفِ القسمِ السُّفْلي منها فقد كتب التاريخ (٩٤٦هـ/١٥٣٩م).

أما القطعةُ الخَزَفِيَّةُ الثانيةُ، الموجودةُ على باب قاعة الدروس -التي تعد هي الأخرى من أكثر النماذج الفنيَّةِ جمالًا وروعةً في مجال الفنّ الخزفي في القرن السادِس عَشَرَ- فقد أُرسِلَتْ هي الأخرى مع القطعةِ الخزفيَّةِ

(١٤٤) حِسَاب الْجُمَّل: نوع من الحساب يُجْعَل فِيهِ لكل حرف من الْحُرُوف الأبجدية عَدَدٌ من الْوَاحِد إِلَى الْألف على تَرْتِيب خَاص. (المترجم)

الأولى، الموجودة فوق الباب الرئيسيّ للمدرسة، إلى متحفِ "جِينِيلِي كُوشْكْ"؛ حيث تَمَّ رفعهما من أماكنهما بعد أنْ كانتا على وشكِ السقوط.

وعلى هذه اللوحةِ الثانية، كُتِبَتْ الآيةُ الثامنةَ عَشَرَ من سورة الحشر(١٤٥) في القرآن الكريم، بالخطِّ الروميّ الأصفرِ فوقَ خلفيَّةٍ خضراء(١٤٦).

كما لوحظَ أنَّ أماكنَ المرايا الخاصَّةِ بنوافذِ المدرسةِ التي تُطلُّ على شارع "خَاصَكِي"، قد أصبحت خاويةً تمامًا، لكن من المُؤَكَّد أن تلك الأماكن كانت مغطّاةً بقِطَعٍ من الخَزفِ عند افتتاح تلك المدرسة، واليوم مع الأسف، فإن "مجمّع خَاصَكِي" لم يَعُدْ به أيُّ أَثَرٍ للقِطَع الخزفيَّةِ الرائعةِ التي عَمَّتْ شُهرتها الآفاقَ، والتي كانت تُذكِّرُ الناظرينَ إليها بموسم الربيع.

وللأسف الشديد، فإن الذي قضى على تلك الآثار الفنّيّة الرائعة ليس تعاقُبُ الزمان بل يد الإنسان.

المدرسةُ تَحوَّلت إلى ملجأ

تعتبر مدرسة "خَاصَكِي" من الناحيَةِ المِعماريَّةِ أثـرًا فريدًا من ضمن الآثار التي حَمَلت لنا طابعَ وبصمة الفنان المعماري "سِنَان"، عند الدخول من باب المدرسة نجد فناءً واسعًا ذا حوض، وحوله غرف الطلاب، ويليها قاعةُ الدرس، كما نجدُ فِناءً آخرَ به رُواقٌ أحاطت به الأبنيةُ المغلقةُ من ثلاث جهاتٍ، وتقع قاعةُ الدرس في وسط الرُّواقِ الذي يواجهُ البابَ، وكانت قاعة الدرس، بِقُبَّتِها التي يصل حجمها إلى ٦,٨ أمتار، زائدةً عن محيط المدرسة وخارجةً عنها، وقاعةُ الدرسِ مُقسَّمةٌ إلى سِتِّ غُرَفٍ

(١٤٥) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (سورة الحشر: ١٨/٥٩).

(١٤٦) طَاشْكِيرَانْ، المصدر السابق، ص ١٠٨.

مدرسة "خَاصَكِي السلطانة خُرّم" الدينية في "خَاصَكِي/إسطنبول"

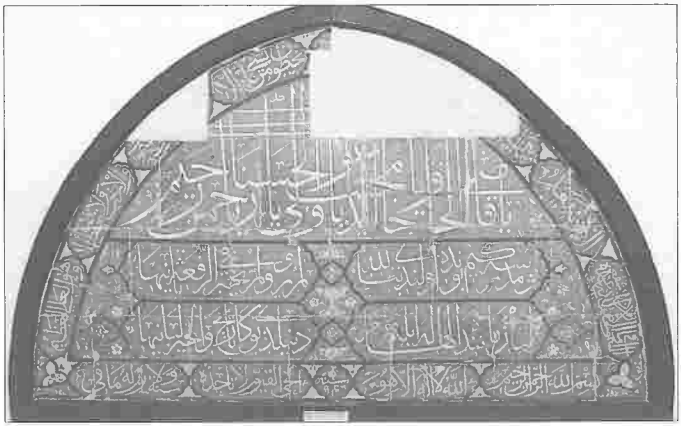

أحد الميازيب والحفر الخزفية على إحدى نوافذ مدرسة "خَاصَكِي السلطانة خُرّم" الدينية (متاحف آثار إسطنبول، متحف القصر الخزفي، معروضة رقم: ٥٤٤/٤١)

مُوزَّعةٍ على الجانبين، ثلاثةٌ منها عن اليمين وثلاثةٌ منها عن الشمال، أما فِناءُ المدرسة فقد قُسِّم إلى عَشْرِ غُرَفٍ موزَّعةٍ هي الأخرى على الجانبين، خمسةٌ عن اليمينِ وخمسةٌ عن الشمال، تتميَّزُ كلُّ الغُرَفِ بأن لها قِبابًا، وبداخل كلِّ واحدةٍ منها يوجدُ موقدٌ صغيرٌ.

وقد بُنِيت أَقْوَاسُ الرُّواق بالحَجَر الأبيضِ والأحمر على نحوٍ مُتَناوِب، فكلّ لَبِنَةٍ بيضاءَ تليها لبنةٌ حمراء، وكلّ لبنةٍ حمراءَ تليها لبنةٌ بيضاء، وهكذا.. أما الأعمدةُ فقد شُيِّدت مِن الرخام وحجر السُّمَاقِي.(١٤٧)

* * *

وقد تَعَرَّض هذا الأثرُ الرائع على مرّ الزمن إلى أضرارٍ وتلفيَّاتٍ منذ أن قام "سِنَان" ببنائِهِ؛ من جراء الحوادث والزلازلِ والحرائقِ، ففي عام (١٨٩٤م) وقع زلزالٌ ضخمٌ تعرَّضتِ المدرسةُ على إِثْرِهِ مع بقيّةِ بناياتِ "مجمَّع خَاصَكِي" إلى الضرر الشديدِ، لكن في أوائل عام (١٨٩٦م) تمَّ ترميمُها.

وبناء على تقرير المعاينة والفحص الصادر في الثاني من أيلول/سبتمبر (١٩١٤م)، فقد أُخرِجت المدرسة من الخدمةِ؛ نظرًا لحالتها التي كانت تستدعي الإصلاحَ والترميمَ، حيث نبتتِ الأعشابُ على قِبَابِ المدرسة المباركة، وفي أواخرِ عام (١٩١٨م) أصبحت المدرسة تُستخدَم كمطبخٍ من قِبَلِ الجنودِ، وفي الأعوام اللاحقةِ فقد تحولتِ المدرسةُ -لفترة من الزمن- إلى مأوى للمرضى النفسيّين، وبعد أن تمَّ إجراءُ عملياتِ الإصلاحِ والترميمِ من قِبَلِ المديريَّةِ العامَّةِ للأوقاف، في الفترة الممتدَّةِ بين عامي (١٩٦٧-١٩٦٩م) صارت المدرسةُ تُستخدَمُ، ولفترةٍ طويلةٍ، كمركزٍ تعليميٍّ بإسطنبول، تابعٍ لرئاسةِ الشؤونِ الدينيّةِ.

(١٤٧) سَمَا دُوغَانْ، المصدر السابق، ص ٣٧١.

لا يليق بالإنسان اللجوء إلى (الواسطة)

بناء على المصادر التاريخية فقد كانت مهنةُ التدريسِ في مدرسة "خَاصَكِي" خلال عصرِ القانونيّ، تُعادلُ مهنةَ التدريس في المدارس الكبرى الموجودةِ في تلك المرحلة، أو كان التدريسُ في مدرسةِ "خَاصَكِي" يُشَكِلُ جسرًا للوصول إليها(١٤٨).

وحَسَبَ ما ورد في الوثائق التاريخية، فإن "كِينَالِي زَاده (*Kınalızâde*) علي شلبي"، الذي يُعَدّ مِن كبارِ علماءِ عصرِهِ، قد قام بالتدريسِ لمدَّةِ ثلاثِ سنواتٍ في مدرسة "خَاصَكِي"،(١٤٩) وبعد أن نال "علي شلبي" الترقِيَةَ بعد عمله في مدرسة "خَاصَكِي"، نجدُه قد انتقلَ إلى العملِ في مدرسة "صحنِ ثمان" التابعةِ لجامعِ "الفاتح"، ثم ترقَّى للعمل بالتدريس

(١٤٨) كان يذكر في اللوائح التي تنظم عمل الأوقاف بشكل واضح الحالة العلمية والشخصية للمدرسين، ففي اللائحة التي تنظم عمل "وقف السلطانة خَاصَكِي" توجد تعبيرات مثل: "تنشأ المدارس من أجل رفع شأن العلم والتعليم، ومن أجل تبجيل واحترام العلماء الكبار بين أفراد الشعب"، بالإضافة إلى ما سبق، فيذكر أن المدرسين كان يتم اختيارهم من العلماء ومن بين أولئك المشهود لهم بالفضيلة والأدب بين الناس، ومن بين المعلوم عنهم بِسَعَةِ العلم والدين من بين أمثالهم، وأيضًا من بين ذوي السُمعة والمكانة، ومن بين أوائل الناس في عصرهم، ومن أولئك الأشخاص المتفوقين وسط أساتذة عصرهم، ومن بين المتميزين وسط أقرانهم، وفي لائحة الوقف يُعبَّر بوضوح عن الشروط الواجب توافرها في المعلم:

"يجب أن يكون المدرس قادرًا على تعليم الآخرين، وأن يكون لديه القدرة على التعامل مع المسائل العِلْمية الدقيقة والحساسة، وأن يكون قادرًا على حل المسائل الدينية والفقهية وفق قواعد وأصول البحث، وذا ذكاء متوقد وقدرة على النقد، ويتم اختياره من بين أقرانه، إن هذه الشروط التي كان يتم مراعاتها عند اختيار المدرسين تدل على مدى الدقة والاهتمام اللذين كان صاحب الوقف يُوليهما في سبيل هذا الموضوع، وفي تاريخ الأوقاف تتضح أيضًا الأهمية المعطاة إلى هذا الأمر عندما نجد أن أعلى أَجْرٍ كان يتم منحه في الوقف، كان يخصص للمُدَرِّس، وكان هذا الأجرُ يصل إلى خمسين درهم في اليوم، لقد كان هذا الأجر يعطى في ذلك الوقت للأشخاص الذين يتربعون على أعلى درجات الإدارة في الدولة العثمانية، ويمكن أن يفهم على نحوٍ جيد مقدار هذا المبلغ إذا أَدْرَكنا أن أَجْرَ كبير المهندسين المعماريين "سِنَان" كان خمسةً وخمسين درهمًا في اليوم.

(١٤٩) إن " محمد علي عوني" في كتابه الذي يحمل اسم "أعلام الأخلاق الأتراك" والذي نشر عام (١٩٣٩م)، يذكر أنه لم يكتب حتى اليوم عمل يصل إلى درجة كتاب "الأخلاق السامية" الذي ألّفه "كينالي زاده".

في مدرسةِ "السليمانيّةِ". وهكذا، نُدرك أن مدرسةَ "خَاصَكِي" كانت تُمَثِّلُ محطّةً مُهمّةً على طريق التعليم الكلاسيكي، في ذلك الوقت.

* * *

ونعرضُ عليكم حكايةً لطيفةً ومسلّيةً وقعت بين كلٍّ من "كينالي زاده علي شلبي" وشيخِ الإسلامِ الشهيرِ "أبي السعود أفندي":

فنظرًا لسوء العلاقة بين "جيوي زاده (*Çivizâde*)" وبين أستاذ "كينالي زاده" بالمفتي "أبي السعود أفندي"، وكونِ التعييناتِ تَتِمُّ بتصديقِ الأخيرِ، فإن "كينالي زاده" لم يتمكَّنْ من العمل مُدرّسًا لفترةٍ طويلةٍ، ومن أجل ذلك فقد أصابه حزنٌ شديدٌ، وفي النهاية تَوَجَّهَ "علي شلبي" إلى شيخ الإسلام "أبي السعود أفندي" آخِذًا معه بعضَ الأعمال التي كَتَبَها، وعندما رآه "أبو السعود أفندي" بادَرَه بالسؤالِ عن سببِ الزيارةِ، فرَدَّ "علي شلبي" قائلًا:

> "إن من يتقلَّدون الوظائفَ ويعملون بالتدريس، يُحقِّقون أهدافَهم بكثرة تردُّدهم على أبوابِ كبارِ رجالِ الدولةِ، أمَّا نحن فقد أَرَدْنا أن نُحقِّقَ رغبَتَنَا في العمل بالتدريسِ من خلالِ إثباتِ الكفاءةِ العلميّةِ المطلوبةِ، فقمتُ بترجمةِ أجزاء من هذه المخطوطات -وأشار بيده إلى المخطوطات التي معه- إلى اللغةِ التركيّةِ، فإن كان ثَمَّةَ أبوابٌ أخرى يَجِب أنْ نَطرقَها فَلْتُخْبِرُونا بها إذًا!".

قامَ الشيخ "أبو السعود أفندي" بإلقاءِ نظرةٍ على الأعمال التي كانت بِحَوْزَةِ "علي شلبي"، ثم أَمَرَ بتَعْيِينِهِ في الحال في وظيفةِ مدرّسٍ بمدرسة "حسام الدين" في مدينة "أَدِرْنه"، لكن "أبا السعود أفندي" لم يَفُتْهُ أن يُعَلِّم مَنْ كان جالسًا إلى جواره في ذلك الوقت درسًا لا يُنْسَى، فتوجّه إليهم على الفورِ قائلًا:

"إن الإنسان العاقل والمنصف يَنَالُ ما يستحقه عن طريق إبرازِ ما لديه من مَواهِبَ وقُدرات، أما أن يتودَّد إلى هذا وذاك، ويُقدِّم الالتماسات من أجل أن يقضي حاجته، فهذا ليس من المروءة في شيءٍ!"(١٥٠)

إن هذه الحادثة تُبَيِّن لنا بشكل جَلِيّ طبيعةَ شخصيَّةِ "كينالي زاده علي شلبي"، وقدراتِهِ العقليَّةِ على النقاشِ والجدالِ، وفي الوقت نفسِهِ تشيرُ إلى شجاعتِهِ العلميّةِ وحنكتِه في النقاش.

* * *

وإذا رجعنا إلى لائحةِ وقفِ السلطانة "خَاصَكِي"، فإننا نجدُ أن غُرفَ المدرسة الدينيّةِ كانت مُعدَّةً لِأَنْ يُقِيمَ بها ستةَ عَشَرَ طالبًا مجتهدًا حَسَنَ الخُلُقِ لا يَتَخَلَّف عن دُرُوسِ العِلْم إلا لِعُذْرٍ أو داعٍ شرعيّ؛ لِيَكُونُوا بذلك قُدْوَةً لغيرهم من الطلاب،(١٥١) كان الطلابُ بعد انتهاء الدرس يقومون مع المدرسِ بقراءةِ سورةِ الإخلاصِ ثلاثَ مرّاتٍ والفاتحةِ مرّةً واحدةً، ثم يقومون بالصلاةِ والسلامِ على الرسول ﷺ، وبعدها يترحَّمون ويطلبون المغفرة لروح صاحبةِ الوقفِ "السلطانة خُرَّم". (١٥٢)

(١٥٠) طَاشْكِيرَانْ، المصدر السابق، ص ١٠٦.

(١٥١) لقد كان الطلبة الذين يتلقون العلوم العقلية والنقلية في المدارس العثمانية يتبعون نظاما تعليميا يكفل لهم الإقامة الكاملة. وفي هذا النظام التعليمي حلت وبمنتهى السهولة مسألة "اشتراك الطلبة في الإدارة" وهي المسألة التي لا تزال حتى الآن مثار نقاش وجدل في الجامعات. لقد كان الطلبة يختارون من بينهم من يمثلهم، حيث كان هؤلاء الطلبة الذين يتم اختيارهم يحملون اسم "المُعِيدْ"، وكان هؤلاء المعيدون –على اعتبار أنهم رؤساء الطلبة– يشرفون على الطلاب، وفي نفس الوقت كانوا يمثلون حلقة الوصل أو الواسطة من أجل حل المشاكل بين الطلاب وإدارة المدرسة، وكان المعيد من هؤلاء المعيدين يتلقى أجرا يوميا يبلغ ٥ دراهم. أما بقية الطلاب فقد كان الواحد منهم يتلقى في اليوم درهمين.

(١٥٢) مُونَاحَاتْ كُوتُوكْ أُوغْلُو، "مدارس إسطنبول التي بقيت حتى القرن العشرين"، أنقرة – ٢٠٠٠م، ص ٢٩٠–٢٩١.

دار "خَاصَكِي" لإطعام المساكين إحدى روائع "سنان" المميّزة

كان القيام بالأعمالِ الخيريّةِ مجالًا مميّزًا وفعَّالًا أَولَتْهُ النساءُ أهميةً كبيرة في الدولة العليّةِ العثمانيّةِ، فنجدُ أن السيّداتِ من ذواتِ الثروةِ والقوّةِ والنفوذِ في الدولة العثمانيَّةِ كنَّ يحوّلنَ نفوذهنَّ هذا إلى واقعٍ ملموسٍ، بإنشاءِ المؤسَّساتِ الخيريَّةِ الكبيرةِ (الأوقاف)، والمبادرةِ إلى تقديمِ المساعداتِ والإعاناتِ في إطارِ رغباتِهنَّ وتطلُّعاتِهنَّ.

لقد أَنْفَقَتْ تلك السيّداتُ بسخاءٍ حينَ تَبَرَّعْنَ بجزءٍ كبيرٍ من ثَرَوَاتِهنَّ ووَهَبْنَه لصالح المؤسسات الاجتماعيَّةِ المختلفةِ، التي تعمل في ميادين شتَّى، مثل: الصحّةِ والتعليم وغيرهما، وقد اكتسبنَ شهرةً كبيرةً وسُمعةً طيّبةً؛ بسبب إسهاماتِهنَّ في أعمال الخيرِ، والرعايةِ، ومساعدةِ المحتاجين.

وبحلول منتصف القرن السادس عشر -أي في الفترة التي عاشت فيها "السلطانة خُرَّم"- كانت قد تطوَّرت مجالاتُ بناءِ وتشييدِ الأوقافِ الخيريّةِ.

فـ"السلطانة خُرَّم" أسهمت في الكثير من الأعمالِ الخيريّةِ خلالَ فترةِ حياتها، وقد تركت لنا الكثيرَ من الأوقافِ، إلا أنها لم تَنْسَ أن يكون لها -أيضًا- عمل خاصٌّ يميّزُها عن الآخرين، فقد قامت "السلطانة خُرَّم" بإضافةِ دارٍ لإطعامِ المساكين، ألحقتها بـ"مجمّع خَاصَكِي"؛ لإطعامِ الأشخاصِ المحرومين والمحتاجين الذين لا يجدون الرعايةَ والعنايةَ اللازمةَ.

* * *

إن دارَ إطعامِ المساكين، تقعُ اليوم بين شوارع "جَودَتْ باشا" الممتدَّةِ بمحاذاةِ شارع "خَاصَكِي"، ولهذه الدار ثلاثةُ أبوابٍ؛ "الباب الرئيس" ويقعُ بجوارِ السبيل، كما يُطِلُّ على شارع "خَاصَكِي"، وقد دُوِّنَ على هذا البابِ

الأثري بيتٌ من الشِّعْر مُحِيَ شَطْرُهُ الأَوَّلُ وبَقِيَ الشطرُ الثاني مكتوبًا على نحوٍ يُمكِنُ قراءته بسهولةٍ، وقد سُجِّلَ تاريخُ إنشاءِ الدار بِحِسَابِ الجُمَّلِ، فـي البيت الأخير المُدَوَّنِ على ذلك الباب في عام (٩٤٧هـ/١٥٤٠م)[١٥٣]، وهكـذا تمَّت إضافةُ بناءٍ ثالثٍ إلى الجامـع والمدرسـة الدينيَّةِ التي حواها "مجمَّـع خَاصَكِي"، وهو دار إطعام المساكين[١٥٤].

لقـد كانـت دار "خَاصَكِي" لإطعام المسـاكين إحدى روائـع "سِـنَان" المميـزة، بحيـث يمكـنُ القـولُ: إن هـذا المعمـاري الفَذَّ قد اسـتطاع من خـلال هـذا الأثرِ أن يخطُـوَ أُولى خطواتِهِ على سـلّم العبقريَّةِ، وذلك لأن المهارة التي أظهرها "سِـنَان" في هذا العمل تفوقُ في سِماتِها وخصائِصِها المِعماريَّـةِ باقـي بنايات المجمّـع؛ حيث إن الطريقـةَ والكيفيَّةَ التي قام بها "سِـنَان" ببناءِ القِبَابِ والأقواسِ في هذا العملِ كانت على درجةٍ عاليةٍ من الإبداعِ والدِّقّةِ التي تصيبُ من يراها بالذهولِ.

إن هـذا البنـاء الفريدَ الذي صمَّمَهُ وأنجزَهُ "سِـنَان" بيديه، قد اسـتطاع مـن خلالـه أن يعرضَ أمامَ العالم فَنَّه وشـخصيَّتَه إلى جانب عَظَمَةِ العصرِ الذي عاش فيه.

اثنان وثلاثون كيلو جرامًا من اللحم يوميًّا

وفـي الجِهَةِ الشـماليَّة نجدُ دارَ إطعامِ المسـاكين وقـد أُحيطَتْ برواقٍ ذي ثلاث أقواسٍ من جهةِ الشرقِ وخمسٍ من جهةِ الغرب، ونجدُ أن هذه

(١٥٣) إن السيد "طَاشْكِيرَانْ " في عمله الذي نشر عام (١٩٧٢م)يقف بإصرار عند عام (١٥٤٠م/٩٤٧هـ). لكننا نجد في المجلد السادس عشر من كتاب "السلطانة خُرّم" الذي طُبع من قبل مؤسسة (الموسوعة الإسلامية، هيئة الديانة التركية،) *DIA* عام (١٩٩٧م) العبارة التالية: "مكتوب أن دار إطعام المساكين قد أنشئت من قبل "القانوني" عام (١٥٥٠م/٩٥٧هـ)". كذلك نجد الجملة التالية التي تطالعنا في المقالة التي تحمل توقيع "دوغان قوبان" في المجلد الرابع من الموسوعة الإسلامية، هيئة الديانة التركية، إسطنبول- ٢٠٠٣م: "بناء على ما ذكر في الكتابة الموجودة على مدخل دار إطعام المحتاجين فقد أسس هذا البناء من قبل "القانوني" عام (١٥٥٠م)".

(١٥٤) طَاشْكِيرَانْ، المصدر السابق، ص ١١٤.

دار إطعام المساكين "خَاصَكِي السلطانة خُرّم" في "خَاصَكِي/إسطنبول"

الأروقـة مغطَّاةٌ بِقبـابٍ مثبَّتَةٍ على أعمـدةٍ ذاتِ رؤوسٍ مربَّعَةٍ، أما المطبخُ الذي يقـعُ شـمالَ صحن الدار فيتكوَّن من مسـاحةٍ مغطَّاةٍ بقبَّتين كبيرتين، وفي الخلف منها يوجدُ قسمٌ لإعداد الطعام ذو أربـعِ قِبابٍ صغيرةٍ ومزودٌ بموقد، وإلى جوارِ ما سـبق نجدُ رَدْهَتَينِ مسـتطيلتي الشـكلِ ولكلٍّ منهما قُبَّتانِ، وتنفتحان على الشـارع الموجود في الناحية الغربية من دهاليزَ ذاتِ أقبيةٍ نصفِ دائريَّةٍ.[١٥٥]

* * *

كان من المؤكَّد أن هذه المؤسَّسة الخيريَّة وهذه الدار المخصَّصة لإطعام المساكين في حاجةٍ إلى إمكانات ضخمةٍ؛ لضمانِ استمرارِ القيامِ بأعمالِها وتقديـمِ الخدمـاتِ التي أُنشِـئت مـن أجلها، وبنـاءً على اللائحـةِ الخاصَّةِ بأوقافِ السـلطانةِ "خَاصَكِي" والموجودةِ في أرشـيفِ متحفِ قصرِ "طوب قابـي"، فإن المبالـغَ الماليّة المخصَّصَة لـ"دار خَاصَكِي لإطعام المسـاكين" كانت تقدر حوالي مائةٍ وعشرينَ ألف آقْجَه،[١٥٦] وفي الصفحة الأولى من تلك اللائحةِ نجد أنه من أجل استمرار الخدمة وضمان عدم انقطاعها، فقد خُصِّصَ لهذه الدار بشـكل مُسْـبَقٍ ولمدَّةِ عامٍ مبالـغُ ماليّةٌ احتياطيّة، بحيث وصل الاحتياطيُّ من تلك المبالـغ المالية إلى قرابة ثلاثمائةٍ وتسعةٍ وثمانين ألفًا، وثمانمائةٍ وخمسين آقْجَه، وقد كانت تُستخدمُ في تلك الوثيقة عبارة:

"المبلـغ المتبقي احتياطي لنفقات الدار العامرة لإطعام المساكين"[١٥٧].

* * *

ونلاحظ في لائحةِ وقفِ السـلطانة "خَاصَكِـي" أن هناك اهتمامًا بالغًا بجوانـبَ عديـدةٍ؛ كجودَةِ الطعامِ الـذي يتمُّ طَهْوُه بدار إطعام المسـاكين،

(١٥٥) كُوبَانْ، المصدر السابق، ص ٣٧٢.

(١٥٦) آقْجَه: وهي عملة عثمانية من الفضة من عيار ٨٥ ويبلغ وزنها ٠,٦٤١ جرام

(١٥٧) طَاشْكِيرَانْ، المصدر السابق، ص ١١٥-١١٦.

وكيفيَّـةِ مراقبـة المـوادّ اللازمةِ لتجهيـزِ المأكولات، بالإضافـة إلى قواعدَ محـدَّدَةٍ لتوزيـع الطعـام، وكان من الشـروطِ الواجب توافرهـا في المواد الأساسيّةِ التي تُعَدُّ منها الأطعمة أن تكون من أجود الأنواع، وأن تُستَخدَم البهـارات، مثل: الكمُّـون والفلفلِ والبصلِ والنعناعِ والزعفرانِ؛ لتحسـينِ طعمِ ونكهةِ المأكولاتِ.

ووِفْقًا لما وردَ في تلك اللائحة، فإنه كان يتمُّ إعدادُ وجبتين كلّ يوم، وكان يتـمُّ صـرف خمسـين أوقيَّـةٍ من اللحـم (حوالي أربعةٍ وسـتين كيلو جرامًا) كلَّ يومين، -باستثناءِ أيامِ المناسباتِ الخاصّةِ والأعيادِ- هذا، وإذا أَمعنَّا النظرَ في تلك الإمكانيات التي كانت مخصَّصةً للحم، فإننا سـُندرك بشكلٍ جَلِيٍّ مدى الكرمِ وسَعَةَ اليدِ تجاهَ الفقراءِ والمُعْدَمِينَ.

وكانـت الأطعمةُ الرئيسـيَّةُ في دار إطعامِ المسـاكين هـي المأكولات التـي تُعـدُّ من القمـحِ والأَرُزِّ، أما فـي الأيّامِ الخاّصةِ فقـد كان على رأسِ المأكـولات التـي يتمُّ إعدادهـا (الأرز باللحم البقري)، وبوسـعنا أن نذكرَ أن هـذه الوجبـة كان يدخل في إعدادهـا الأرزُّ والزُّبْد والحِمّصُ والبصلُ، بالإضافـة إلـى ذلك فقد كانت هناك أصناف أخرى تُقدَّم في الوقف، مثل: "زِرْبَـا (*zirba*)[١٥٨]، و" أَكْشِـي آشْ (*Ekşi Aş*)" [١٥٩]، و" أرز زَرْدَا (*zerda*)" [١٦٠]، و"عاشوراء".

وكانـت الوجبـات المطبوخـةُ تحتوي علـى مكوّناتٍ غنيّـةٍ بالبروتين والدهونِ والكربوهيدرات والفيتامينات، كما كان يتمُّ تحديدُ مقدارِ الموادِ المسـتخدمَةِ من أجل ضمانِ أن يكونَ مذاقُ الطعامِ المُعَدّ على خير وجهٍ،

(١٥٨) صنف من الحلوى يصنع من العنب الأسود واللوز والتين والمشمش والبرقوق والعسل والزعفران.

(١٥٩) صنف من الحلوى يصنع من العنب الأسود والعنب الأحمر والتين والمشمش والبرقوق والنعناع وفاكهة مجففة على هيئة ورق.

(١٦٠) صنف من الحلوى يصنع من الأرز والزعفران والعسل والزبدة.

كما أُخِذَ في الاعتبار تَكْلِفَةُ الحطب الذي سيستعملُ في طهي الطعام، وإضافتُهُ إلى إجماليّ الحساب[١٦١].

* * *

كما ذُكِرَ كذلك في لائحةِ الوقفِ أوصافُ الأشخاصِ الذين سيستفيدون من هذه المؤسَّسَةِ الخيريَّةِ.

وتمَّ السماحُ للموظَّفين الذين يعملون في هذه الدار، وكذلك للموظفين الذين يعملون في المشفى، والمدرسةِ الدينيَّةِ، والجامعِ إلى جانب الطلبةِ الذين يدرسون في المدرسةِ أن يتناولوا الوجباتِ التي كانت تُجهَّز في الدار، بالإضافة إلى ذلك، فقد كان يتمُّ تقديمُ الطعام باستمرارٍ لأربعةٍ وعشرينَ فقيرًا ومحتاجًا طوال حياتهم، وفي حال موتِ أحدِ هؤلاء الأشخاصِ، فقد كان يتمُّ تحديدُ الأشخاصِ المحتاجين الجُدُد من خلال البحث الدقيقِ، فقد كانت هناك قواعد صارمةٌ لا تسمح لغير المُستحقّين بأن يَتِمَّ وضعُ أسمائهم في لائحةِ مَنْ له حقُّ الاستفادة من خدمات الوقف.

أما الأطعمةُ التي كانت تأتي من المطبخ وتزيدُ عن حاجةِ الوقفِ، فقد كان يتمُّ توزيعُها على الفقراء والمحتاجين، بشرطِ أن يتمَّ أكلُها في القاعةِ المُخصَّصةِ لتناولِ الطعام داخل هذا الوقف.

التعليمُ الدينيُّ في مدارس الصِّبْيان

كانت المدارسُ الدينيَّةُ، ومدارسُ الصبيان[١٦٢] -فيما قبل مرحلة التعليم الأساسية- يمثّلانِ أهم عنصرٍ في النظام التعليميّ والتربويّ في

(١٦١) طَاشْكِيرَانْ، المصدر السابق، ص ٤٩.

(١٦٢) الصبيان كلمة عربية الأصل وهي جمع لكلمة "صَبِيّ"، وتعني الولد الذكر الصغير، أما مدرسة الصبيان فهي مدرسة أنشئتْ للطلاب الذكور الصغار، إلا أنها برغم تسمّيها باسم الأولاد الذكور أي الصبيان فقد كانت تدرس فيها البنات الصغيرات أيضًا، وكانت مدارس الأولاد والبنات منفصلة عن بعضها في الأغلب الأعم في الدولة العثمانية، أما تلك المدارس المختلطة فقد كان الأولاد والبنات يجلس كل منهم في صفوف خاصة به في الفصل الواحد.

الدولة العثمانيَّة، ولم تكن الدولة هي من تُنشِئُ هذه المؤسَّسات التعليميَّةِ، بل كان يُشيِّدها العلماءُ والأغنياء وميسورو الحال من أبناء الشعبِ وكبارِ رجالِ الدولة، مثل: السلطان، والصدرِ الأعظم، والوزيرِ، والسلطانةِ(١٦٣).

وكان الأشخاص الذين يقومون ببناء مدرسة للصِّبْيان يُخصِّصون أيضًا مواردَ ماليَّة كافيةً؛ للوفاءِ باحتياجات المدرسةِ، وتوفيرِ الدعمِ اللازمِ لكي تتمكَّنَ تلك المؤسَّسة التعليميّة من القيام بنشاطها بشكلٍ مستمرٍّ، ولهذا فكان يتمُّ تخصيصُ وقفٍ ليكون مصدرًا ماليًّا متجدِّدًا يكفي لتغطيةِ كافَّةِ المصاريف المتعلِّقةِ بالمؤسَّسةِ، مثل: المبالغ الماليَّةِ اللازمةِ للاعتناءِ بالمدرسة بعد إنشائِها، وتوفيرِ الإصلاحات التي قد تتطلَّبُها، هذا إلى جانب مرتَّباتِ الموظَّفين العاملينَ فيها، والمصاريفِ اللازمة لإطعام وإيواءِ الطلبةِ الذين يتلقّون العلمَ في المدرسة،(١٦٤) وهكذا، كان يتمُّ الإنفاق على مؤسَّسات التربية والتعليم من غير اللجوءِ إلى أيَّةِ أموال من خِزَانة الدولة(١٦٥).

وفي وقف "السلطانة خُرَّم"، كان يُشتَرط أن يكونَ التعليمُ الدينيُّ في المدرسة موجَّهًا فقط للأطفال المسلمين، بالإضافة إلى تعليمِ قواعدِ اللغةِ كدروس تكميليَّةٍ، وكانت إدارة المدرسةِ تشترطُ في المعلِّم ومن معه

(١٦٣) بناء على الدراسة التي قام بها "المعلم جودت" عام (١٩١٩م)، فقد كان في إسطنبول مائةٌ وثلاثةٌ وثمانون وقفًا وتسعةٌ وثلاثون مدرسةً تم إنشاؤها من قبل سلطانات وسيدات القصر. وقد أُنشِئَتْ أول مدرسة للصبيان من قبل السلطان "محمد الفاتح"، وذلك ضمن مجمع الفاتح حيث أخذت اسم "دار التعليم". (إسماعيل قَرَه، مدارس الصبيان، إسطنبول- ٢٠٠٥م، ص ١٦).

(١٦٤) نجد أن بعض المدارس في الأوقاف كانت تقدم الطعام للطلاب والعاملين بها، إلا إننا نجد بعض المدارس الأخرى تصرف لكل طالب مبلغًا ماليًا كل يوم وذلك في مقابل أن يقوم كلّ واحدٍ من الطلاب بقراءة جزءٍ من القرآن، (فخر الدين بُوزْدَاغْ (*Bozdağ*)، مدارس الصبيان، الجزء الثامن من اصدارات ندوة السلطان " أيوب "، إسطنبول. ٢٠٠٤، ص ١٢٧).

(١٦٥) فخر الدين بُوزْدَاغْ، مدارس الصبيان، الجزء الثامن من اصدارات ندوة السلطان " أيوب "، إسطنبول، ٢٠٠٤م، ص ١٢٤.

من مساعديه، صفاتٍ يجبُ توافُرُهَا فيهما، ومن بين هذه الصفاتِ الواجب توافرها: الأخلاقُ القويمةُ والصفاتُ الحميدةُ، وأن يكون صديقًا مُقرَّبًا من الطلاب، كما كان من ضمنِ الصفاتِ المنتظر توافرُها في المعلم، أن يكون في تعامُلِه مع الطلاب كالأب الشفيق، كما اشتُرط في المعلم أن يكون مجيدًا إجادةً تامةً لأحكام[١٦٦] القرآن الكريم. [١٦٧]

حديقةُ ألعابٍ للأطفال

كانت مدرسة "خَاصَكِي" للصبيان تتكوَّنُ من قسمين، وتقع بين المدرسةِ الدينيَّةِ والبابِ الرئيسِ لدارِ إطعامِ المساكين، وكانت هذه المدرسةُ في شكلِها المِعماريّ تُعبِّرُ عن البساطةِ والجمالِ، الذي يتلاءمُ مع شخصيَّةِ "سِنَان".

وتتَّخِذُ المدرسة شكلَ وحدةٍ معماريَّةٍ مربَّعةِ الشكلِ تتكوَّن من قسمين، القسم الأول منهما له جانبان يُصْعَدُ إليه بسلَّمٍ ذي أربع درجات، وطرفا هذا القسم الأول مفتوحان تُجَمِّلُهُما القناطرُ والأروِقةُ ذاتُ الأعمدةِ الرخاميَّةِ الأثريَّةِ، أما القسم الثاني من المدرسة فعبارةٌ عن قاعةٍ مغلقةٍ للتعليم، كلا القسمينِ في المدرسة له سقفٌ مُسْتَوٍ، بحيث إنَّ كلَّ المساحاتِ مغطَّاةٌ بسقفٍ مثبتٍ، أما الساحةُ ذاتُ الحوضِ التي في مواجهةِ البناء، فعلى الأرجحِ أنها كانت تُستخدَم كحديقةِ ألعابٍ للأطفال.

ولم يتسنَّى لأحَدٍ حتى الآن معرفةُ تاريخِ إنشاء هذه المدرسة على سبيل الجزم والقطع؛ حيث لم يُدوَّن عليها تاريخُ الإنشاء، لكن الأعمالَ

(١٦٦) كان تعليم الدين الاسلامي هو الهدف الرئيس والوظيفة الأساسية المنوطة بمهنة التدريس في مدارس الصبيان، وإذا كانت الغاية الرئيسة من تأسيس هذه المدارس –في الغالب– هو رعاية اليتامى والفقراء فقد كانت هذه المدارس كذلك تظهر صدق الروح والمشاعر التي توليها الطبقة الدنيا من المجتمع للتعليم الديني. أما أولئك الذين كانت ظروفهم الاقتصادية جيدة فقد كانوا يرسلون أبنائهم ليتلقوا شكل من أشكال "التعليم الخاص".

(١٦٧) طَاشْكِيزَانْ، المصدر السابق، ص ١٢٤.

المزخرفةَ برسمِ زهرة "اللينوفَر(*liniufer*)" التي نراها موجودةً على بناءِ المدرسةِ تشيرُ إلى أنَّ كلاهما قد تمَّ الانتهاءُ منه في وقت واحدٍ، أي في عام (١٥٣٩م). (١٦٨)

إن مدرسة "خَاصَكِي" للصِّبْيان تُمثِّل لنا نمطًا معماريًّا مختلفًا، من خلال شكلِها الفريد والمميَّز عن باقي المباني ذات القِبابِ.

سبيلُ الماءِ

في الطرف الشمالي من شارع "خَاصَكِي" نجد سبيلًا للماءِ من الحجر المقطوع، الذي يعود تاريخ إنشائه إلى القرنِ السادس عشر من الميلاد، حيث نراه يقع تجاه الأبواب الثلاثة التي تمثل مدخل المجمَّع، متخِذًا مكانَه بين أبواب مدرسة الصبيان ودار إطعام المساكين.

وفوقَ هذا السبيل توجدُ قطعةٌ من الرخام كُتب عليها ما يشيرُ إلى أنه قد تمَّ ترميمُه في عام (١٧٩٩م/١١٨٠هـ)، ويأخذُ هذا السبيلُ شكلَ قوسٍ حادٍّ حجريٍّ منحوتٍ داخلَ إطارٍ مربّعٍ على النمطِ الكلاسيكيّ، وعلى الحجرِ ذي النقوشِ والزخارفِ الخاصّ بهذا السبيلِ نرى كتابةً بخطٍّ مقوَّسٍ مستديرٍ، وقد حُملت هذه الكتابة بواسطةِ عمودين رخاميَّين، ومع الأسفِ، فقد توقَّفَ نزولُ المياهِ من السبيلِ بسبب كثرةِ وتكرارِ رصفِ الطريقِ إلى أن أصبحَ الطريقُ أعلى من مصدرِ نزولِ المياهِ، مما اضطرَّ إلى إيقافِ هذا السبيلِ عن الخدمةِ حينما انخفضَ جزءٌ منه عن مستوى الطريقِ وذلك في عام (١٩٩٧م). (١٦٩)

* * *

(١٦٨) سَمَا دُوغَانْ، المصدر السابق، ص ٣٧٢.

(١٦٩) سَمَا دُوغَانْ، المصدر السابق، ص ٣٧١.

سبيل "خَاصَكِي السلطانة خُرّم"

وهذا هو البيتُ الثاني من المقطوعةِ الموجودةِ أعلى الكتابة:

"ماءُ السبيلِ يفيضُ كماءِ زمزم
ومن يدِ الخَضِرِ شربتْ كلُّ الكائنات شرابًا طهورًا"(١٧٠).

* * *

مشفى "خَاصَكِي" الأثر الوحيد من ميراث القرن السادس عشر

إن مشفى "خَاصَكِي" الذي تم بناؤه في عام (١٥٥٠م/٩٥٧هـ) يُعتبرُ البناءَ الأخيرَ الذي تمّ إنشاؤُه ضمنَ أبنيةِ "مجمّع خَاصَكِي"، وهو يمثّل مستشفى "خَاصَكِي" الموجود اليوم.

وفي الأثر الذي تركَهُ لنا "أَيوَان صَرَاي (*Ayvansarayî*)" والمسمّى "حديقة الجوامع" نجده يشير بحساب الجُمَّل إلى تاريخ إنشاء الوقف الرئيس الذي يعود إلى "السلطانة خُرَّم"، حيث يذكر لنا أن تاريخ إنشاء هذا الوقف هو عام (١٥٥١م)، وهو ما يشير بشكلٍ واضحٍ إلى تاريخِ إنشاءِ المشفى.

وفي الثالث عشر من حزيران/يونيو من العام نفسِهِ، تمَّ وضعُ حجرِ الأساسِ لبناءِ جامع "السليمانية" الذي يعتبر من أعظمِ وأروعِ الجوامع، وفي كتاب "تذكرة البنيان" يذكر لنا المعماريّ "سِنَان" هذه الجملة المتعلّقة بذلك الأثرِ الفريدِ:

"تم إرساءُ أساس هذا الجامع المنيفِ في وقتٍ شريفٍ
وساعةٍ سعيدةٍ!"

* * *

(١٧٠) إبرهيم حلمي طَانِيشِيكْ (*Tanışık*)، " سُبُل مياه إسطنبول "، إسطنبول - ١٩٤٣م، المجلد الأول، ص ١٩٦.

يقـعُ مشـفى "خَاصَكِي" في الجهةِ الجنوبيّةِ المقابلةِ للمدرسـةِ الدينيّةِ ومدرسة الصبيان، وبمحاذاةِ دارِ إطعامِ المساكين الواقعةِ في جهةِ الشرقِ.

إن هذا المشفى الذي ظلَّ يُقدِّمُ خدماته في المبنى نفسه لمدَّةِ ثلاثمائةٍ وأربعةٍ وثلاثينَ عامًا، يُعتبرُ المشفى الوحيدَ الذي يعودُ إلى القرن السادسَ عَشَـرَ، ولا يزالُ يعملُ حتى الآن في إسـطنبول، لكنَّ الجزءَ الأكبرَ من هذا المشـفى -الـذي ربَّما يكونُ قد أُنشِـئ قبـلَ أو بعدَ هذه البنايـة- قد انهدمَ ولم يتبقَّ لنا منه أيّ أثرٍ، أما الأقسامُ المتبقّيةُ حتى الآن من مشفى "خَاصَكِي" فقد استُخدِمت ولا تزالُ تُستخدمُ لأغراضٍ مختلفةٍ أخرى. (١٧١)

لقد صمَّم المعماريُّ "سِنَان" هذا المشفى الذي قُدِّرَ له أن يصمُدَ حتى عصرِنـا الحاليّ، على طِـرَازٍ معماريٍّ مختلفٍ عن تلـك الطُّرُزِ التي كانت تُصَمَّم على أساسِـها المشـافي الفارسيّة والسـلجوقيّة والعثمانيّة القديمة، ونجـح في أن يُشيّد مشفى يضـم ثمانين سريرًا على مساحةٍ صغيرةٍ.

فِنَاء المشفى ذو الحوض

يتميَّزُ المشـفى بغُرَفِهِ ذات القِبَابِ التي تقـع في محيطِ خمسةِ جوانب مـن فِنـاء المشـفى أَمَّـا الأماكـن الواقعـةُ في الشـرق والغـرب والجنوب من الفِنَاء الثُّمَاني الشكل، فنجدها مشيدة من الحجر المقطـع والمنحوت، وتأخذ شـكل صَفَّينِ مسـتديرين بالتناسـق التام فيما بيـن بعضهما البعض وتعلوهما قُبَّتين مُزدوجتين .

(١٧١) لم يتبق من مشفى "الفاتح" -كما يخبرنا "منافينوس" الذي عاش في القرن السادس عشر- سوى حائط صغير متهدم من إجمالي خمسةٍ وعشرين قبة، وقد أُنشئ بعد ذلك بسنوات العديد من المنازل مَحَلّ هذا المشفى الذي كان الأول في إسطنبول، أما المشفى الذي أنشأه السلطان "بيازيد الثاني" فلم يعد معلومًا مكان إنشائه، ولكن المصادر التاريخية تتفق على أن هذا المشفى كان يوجد داخل نطاق مجمـع "بيازيد".

أما في الجنوب الشرقيّ والجنوب الغربيّ من المشفى، فنجدُ أن هناك وحداتٍ كبيرةٍ مقوَّسةٍ ومقنطرةٍ ومنفتحةٍ على الفناء، وفوقَ كلِّ جهةٍ من هاتين الجِهَتين -الجنوبِ الشرقيّ والجنوبِ الغربيّ- قُبَّةٌ كبيرةٌ وضخمةٌ، كما نجدُ هناك غرفتينِ مستقلّتين تقعانِ بين المشفى ودار إطعام المساكين الملحقةِ بالقسمِ الخلفيّ، ويُعتَقدُ أنَّ هاتين الغرفتين كانتا تُستخدَمان من أجل تجهيزِ وإعدادِ الأدويةِ[١٧٢].

إذا جئنا إلى الحوضِ الذي يقعُ في منتصفِ الفناءِ الأساسيّ للمشفى، فإننا نجدُ أنه قد صُمِّمَ بحيثُ يأخذُ شكلُهُ الخارجيُّ منظرَ شجرةٍ تحيطُ بها مجموعةٌ من الزهورِ، أما اليوم فإننا نجدُ أن أرضيَّةَ الحوضِ قد صارت مغطَّاةً بالرخام المُتنوّعِ والمختلفِ الأشكال.

وليس من المعلومِ على وجهِ اليقين، ما إذا كان الشكلُ الأصليُّ للمبنى قد تَعرَّض -خلال الثلاثمائة وعشرين عامًا التي سبقت عام (١٨٧٠م)- إلى تغييراتٍ طرأت عليه أم لا؛ حيث إنه ليس مُتاحًا لدينا اليوم الرسومُ الهندسيَّةُ أو المعلوماتُ المتعلّقة بالمشروعِ، سواءٌ أكانت تلك المعلوماتُ متعلّقةً بتشييدِ البناءِ أم بعمليَّاتِ الإصلاحِ والترميمِ؛ لذلك فلسنا على علمٍ يقينيّ بحجمِ التغييرات أو الأضرارِ التي لحقت ذلكَ الأثرَ العظيم الذي خلَّده لنا المعماريُّ "سِنَان".

الكلمةُ الفظَّةُ توجِعُ المريض

لقد أُعلِنَ بتاريخ (١٥٥١م/٩٥٨هـ) عن الصفاتِ التي يجبُ أن تتوافرَ في الأطباءِ الذين سيتولَّون وظائفَهم في أقسامِ المشفى التابعِ لوقفِ "السلطانة خُرَّم"، وها هو ملخَّصُ تلك الصفات:

(١٧٢) سَمَا دُوغَانْ، المصدر السابق، ص ٣٧١.

الأطبـاءُ الذيـن سـيعملونَ فـي المشـفى يجـبُ أن يكونوا علـى علم ودرايـةٍ بقوانيـنِ الطبِّ والحكمـةِ، وأن يكونَ لديهم إحاطـة بتفاصيل كلِّ هـذه المسـائل، كما يجـب أن يكون الطبيب متخصِّصًا فـي مجاله، وليس طبيبًا عامًّا، وأن يكون لديه سابقُ خبرةٍ في تخصُّصِه، وأن يكونَ قد أمضى فتـرةً طويلـةً يمـارسُ فيهـا الجانـبَ التطبيقيَّ فـي مجال تخصُّصـه، ويتم اختيار هؤلاء الأطباء من بين الأشخاص الذين قَضَوا فترةً زمنيةً أطولَ في الممارسةِ والتطبيق.

لقد كان يُشـترطُ في كلِّ واحدٍ من هؤلاء الأطبَّاء الذين سـيعملون في المشـفى أن يكـونَ من الذين يقومون بعملِهم علـى خيرِ وجهٍ، ومن الذين يُشهَد لهم بحسنِ السيرِ والسلوكِ، وسلامةِ القلب، وكرمِ الأخلاق، وحُسْنِ السجيَّةِ، والرحمةِ، ولينِ القولِ، وحلاوة اللسان، ولطافة المعشرِ، وبشاشة الوجـهِ، ورقّة الطبـعِ، ويرجو الخيرَ لجميعِ الناس؛ القريبِ منهم والبعيدِ، كان لزامًـا علـى هؤلاء الأطبـاء أن يتعاملوا مـع المرضـى بمنتهى الرحمة والشـفقة، كمـا يتعامـل الصديقُ مـع صديقِـهِ المقرَّب فيرعـاه، ولا يعامله بصورة فظَّةٍ أو غليظةٍ على الإطلاق[١٧٣].

لقد كان لزامًا على الطبيب في ذلك المشفى ألّا ينطِقَ بأيَّةِ كلمةٍ سيّئةٍ أو منفِّـرةٍ ولـو نادرًا، وذلك لأن الكلمةَ الفظَّةَ تكونُ أحيانًا بالنسـبةِ لبعضِ المرضـى أكثر إيلامًا من أشـد الأوجاع، وقد وصـل الأمرُ إلى درجةٍ حتى إنه ربّما كنا نجدُ الطبيب من هؤلاء يتحرّى في كلامه مـع المريض ألطف العبارات، ويستخدم عند سؤال المريض أكثر الطرق لينًا وشفقةً، وهذا لأن الكلمات الرقيقةَ التي تُوجَّه للمريض إذا ما كانت سـتقدَّر بالمال فسـتكون

(١٧٣) طَاشْكِيزَانْ، المصدر السابق، ص ١٣٣.

بالنسبة لهذا المريض أغلى قيمةً من جنَّةِ الكوثر وأحلى طعمًا من الزلالِ والسلسبيلِ، فالمريضُ في النهاية محتاجٌ بشدةٍ إلى الكلمة الطيّبة. (١٧٤)

إن الطبيبَ الناجح يَفْرِدُ أجنِحةَ الرأفةِ والشفقةِ على المرضى ويَبْسُطُ لهم مظلَّةَ العنايةِ والرعايةِ.

كان كلُّ واحدٍ من الأطباءِ يأتي المشفى صباحًا ويباشِرُ عملَه، فيطَّلِعُ على أحوالِ الأشخاص المرضَى ذوي البلايا والعلل، ويعاينُ بنفسِه أمراضَهم وآلامَهم، فيقيسُ نبضَهم ويلاحظُ مستوى الإدرارِ لديهم، ويُدقِّقُ في الأعراضِ المعهودةِ للمرض، كان الطبيبُ يسألُ عن كلِّ الأمورِ المتعلِّقة بالمريضِ سواءً الصغيرة أو الكبيرة ولا يهملُ حتى أدقّ الأشياء الخاصَّة به، ثم بعد ذلك يداوي كلَّ واحدٍ من المرضى معطيًا له أفضل العلاجات وإذا ما كانت حالةُ المريضِ تتطلَّبُ أن يتكرَّرَ قدومُه إلى المشفى فإن الطبيبَ كان يسارعُ في الحالِ ودونَ أيّ تقاعسٍ للقيام بما عليه من واجبٍ، ولقد كان الأطباءُ ملتزمينَ وبشكلٍ كاملٍ برعايةِ هذه الشروطِ وعدمِ إخلال أو إهمال أيٍّ منها.

إن هذه الصفاتِ الروحيَّة والعمليّة والتي كان مطلوبًا توافُرُها في الأطباءِ العاملون بمشفى الوقفِ نجدُها اليومَ محلّ طلَبٍ ومناطَ أولويَّةٍ قصوى بالنسبةِ لباقي الصفاتِ المطلوبِ توافُرُها في الوقتِ الحاليّ عند الأطباء، وفي اللائحةِ التي تُنظِّمُ عملَ الوقفِ يُذكرُ أنه من الضروريّ أن يكون الأطباء العاملين بالمشفى على علمٍ ودرايةٍ بالمسائلِ الطبّيّةِ والعلمية، كذلك فقد كانت تُراقَبُ وتُلاحَظُ أيضًا أدقُّ تصرفاتهم تجاهَ المرضى وبشكلٍ كانت تُراعى فيه هذه الناحيةُ إلى أقصى درجة.

(١٧٤) طَاشْكِيزَانْ، المصدر السابق، ص ١٣٣.

وإذا نظرنا إلى المواصفاتِ التي كان من المطلوبِ توافُرُها في أطباءِ مشفى الوقفِ فإنَّنا نجدُ أنها تعكِسُ فكرًا متطوّرًا للغاية ينطوي على أفكارَ أكثر تقدُّميَّة من قَسَم الحكيم "هيبوقراطيس"[١٧٥] الذي يُعَدُّ بمثابةِ "قانونٍ أخلاقيٍّ" في عالم الطبِّ المعاصِر.

فمثلًا لا نجدُ في "قَسَم هيبوقراطيس" أيَّ ذكرٍ للتأثيرِ القويِّ الذي تُحدِثُه الكلمةُ الطيّبةُ واللغةُ اللطيفةُ على المرضى، كما لا نجد ذكرًا على الإطلاق لضرورةِ أن يُظْهِرَ الطبيبُ للمرضى الرأفةَ والاهتمامَ الشخصيّ، إننا لا نجد من بين كلمات "قَسَم هيبوقراطيس" ذكرًا واضحًا وصريحًا للصفاتِ الواجبِ توافرُها لدى الطبيب.

العلاج يُمنح أيضًا خارج نطاق المستشفى

من بين الأطباء الذين كانوا يعملون في مشفى "خَاصَكِي" الذي كان يوظِّفُ ما يقاربُ الثلاثين شخصًا نجدُ أنَّ كبيرَ الأطباءِ كان يبلغُ أجرُهُ اليوميّ ثلاثين درهمًا، أما الطبيبُ الثاني فقد كان أجرُه خمسةَ عشرَ درهمًا، أما الطبيبانِ المختصّانِ بالعيون -واللذان يكونانِ على درجةٍ عاليةٍ من التمكُّنِ في تخصُّصِهما ويتميّزانِ بمهارةِ اليدِ والدقّةِ في وصفِ العلاجِ إلى جانبِ البراعةِ في تشخيصِ المرضِ وتقييمِ الحالةِ المرضيّةِ دونَ الوقوعِ في أخطاء- فقد كان الواحدُ منهما يتقاضى أجرًا يوميًّا يبلغُ خمسةَ دراهم، في حين أنَّ الباقينَ من نفسِ تخصُّصِهما كانوا يتقاضون ثلاثة دراهم يوميًّا، كذلك فقد كان بالمشفى اثنانِ من الجرَّاحينَ الماهرينَ في مجالِهم، والقادرين على مداواةِ كلِّ أنواعِ الجروحِ، والتعاملِ معها بشكلٍ إسعافيٍّ،

(١٧٥) " هيبوقراطيس " (٤٦٠ق.م-٣٧٠ق.م). ولد هذا الطبيب اليوناني الذي يعرف بـ" أبو الطب " في (استانكوى)، وبناء على هذا الطبيب فقد كانت أولى مبادئ الطب هي القاعدة التي تقول (أولا: لا توقع الضرر) أو بمعنى آخر الوقاية خير من العلاج، وعندما يبدأ الأطباء الشبان حياتهم العملية فإنهم يقسمون "قَسَم هيبوقراطيس" المعروف.

حيث كان الواحد منهم يتقاضى خمسةَ دراهم أمَّا الباقون من نفسِ تخصُّصِهم فقد كانوا يتقاضون ثلاثةَ دراهم، وكان هناك أيضًا صيدليّان يتمتَّعان بالمهارةِ في إعدادِ وتحضيرِ الأدويةِ والأشربةِ، حيث كان كلٌّ منهما يتقاضى ثلاثةَ دراهم، وإلى جانبِ الأطبَّاء فقد تمَّ تعيينُ أربعةٍ من الممرّضين لكي يقوموا على خِدْمةِ المرضى في المشفى، وكان كلُّ واحدٍ من هؤلاء الممرِّضينَ مسؤولٌ عن رعايةِ أمورِ المرضى، والقيامِ بما يتطلَّبُه ذلك من الإسراعِ في قضاءِ حوائِجِهِم ورعايةِ أمورِهم وتلبيةِ طلباتِهم بأسرعِ وقتٍ، بحيثُ لم يكُنْ يقصّر أيُّ واحدٍ من هؤلاء الممرِّضينَ في المكوث إلى جانب المرضى، أو تلبية ما يحتاجونه بأي وقت، وفي النهار لا نجدُهم يتأخَّرونَ عن القيامِ بواجباتهم المتعلِّقة بالمرضى كما لا نراهم يُبدون أيّ تراخٍ أو تقاعُسٍ في أداء هذه الواجبات، وفي الليل فقد كان كلُّ اثنينِ من هؤلاء الممرّضين الأربعة يتابعون الخدمةَ بشكلٍ متناوبٍ، وكانت أجرتُهم اليوميّةُ تُقدّرُ بثلاثة دراهم. (١٧٦)

* * *

لقد أمرَتْ "السلطانة خُرَّم" بأن يُصرفَ كلُّ يوم مبلغ مائة وخمسين درهم يُخَصّصُ من أجل العلاجِ والشرابِ والطعامِ والمستحضراتِ العلاجيّةِ وما شابَهها، حيث أنّ كلَّ هذه الأشياء تُوَزَّعُ حسبَ احتياجات المرضى المتواجدين في المشفى.

وكان النظامُ القائمُ في المشفى ألّا تُعطى الأدويةُ إلا للقاطِنين في المشفى والمقيمين فيها للعلاجِ، لكن هذا النظام كان يُستثنى منهُ كلَّ يومِ اثنين وخميس من كلِّ أسبوع، فقد كان يستطيع الأطباء -في يومي الإثنين والخميس- أن يعطوا هذه الأدوية والمستحضرات العلاجية إلى

(١٧٦) طَاشْكِيرَانْ، المصدر السابق، ص ١٣٤.

الأشخاصِ الوافدين من خارجِ المشفى، وكان يُشترطُ عند توزيعِ هذه الأدويةِ أن توزَّعَ على الفقراء بغرضِ التداوي وليس على من يرغبُ في الحصولِ عليها لبيعِها، وبناءً عليه فإن الطبيبَ يُقرّرُ الأمر وفقًا لما يمليه عليه ضميره. (١٧٧)

كان مشفى الوقف مركزًا علاجيًّا

كان الجزءُ الخامسُ من اللائحةِ التي تُنَظِّم عملَ الوقف والذي يحملُ تاريخَ (٩٥٨هـ/١٥٥١م) هو الجزءُ المتعلّقُ بالمشفى، فهذا الجزءُ يختصُّ بما يحدّدُ مهمَّةَ المشفى:

> "إن المشفى يعالجُ كلَّ أنواعِ الأمراضِ، والوقفُ قد خُصِّصَ لعلاج جميع حالات المرض والعلل دون استثناء".

ويفهم من هذه العباراتِ أنَّ المشفى لم تكنْ مؤسَّسةً مقتصرةً على علاجِ المجانين فقط، ولكنها كانت مؤسَّسةً عامَّةً وشاملةً عِلاجَ جميعِ المرضى، ومفتوحةً على اتّساعها لكلِّ الحالاتِ المرضيّةِ، وإذا لم يكن مشفى الوقف على هذا النحوِ -من الشمولِ في العلاج- فلا داعي إذًا لذكر عبارة "كل أنواع الأمراض"، فهذه الجملةُ الصغيرةُ والمختصرةُ تُمَثّلُ في الوقتِ نفسِهِ جوابًا على كثيرٍ من العباراتِ الخاطِئَةِ غيرِ الدقيقة التي أُثيرَتْ حولَ المشفى."(١٧٨)

فعلى الرغم من أنَّ هذا المشفى كان نبعًا للشفقةِ والرحمةِ، واعتبارًا من تاريخ تأسيسِه لم تكن به أيّ تفرقةٍ في المعاملةِ حيث كان على الدوام فاتحًا ذراعيه ومستقبلًا لكلِّ صنوفِ المرضى، كذلك نجدُ أنَّ هذا المشفى كانَ يعملُ بكلِّ طاقتِه على مداواةِ آلامِهم، إلا أنّه مع الأسفِ الشديدِ

(١٧٧) طَاشْكِيرَانْ، المصدر السابق، ص ١٣٤.

(١٧٨) طَاشْكِيرَانْ، المصدر السابق، ص ٤٥.

أصبحَ فيما بعدُ مجرّدَ مكانٍ لِمَن لا يجِدُ مأوًى أو سكنًا، فصار مكانًا للعجزةِ وملجأً للنساءِ السجيناتِ أو النساء اللاتي لا يجِدْنَ بيتًا وملجأً، وأصبحت هذه المؤسّسةُ تُؤْوِي كلّ هؤلاءِ الأصنافِ من البشرِ وتقدّمُ لهمْ ما يحتاجونَه من علاجٍ.

* * *

لقد تعرض "مجمع خَاصَكِي" الذي يُمَثِّلُ وقفَ "السلطانة خُرَّم" لعمليّةِ إصلاحٍ وتجديدٍ في عام (١٧٤٨م)، وفي عام (١٨٤٣م) كانت هناك مراسلاتٌ تُوصِي بضرورةِ إجراءِ عمليّةِ ترميمٍ جديدةٍ وإصلاحاتٍ، وحتى عام (١٨٦٩م) كانت المستشفى تابعةً لإدارةِ الأوقافِ، ثم تحوّل بعد هذا العام ليكون مخصّصًا تحت تصرُّف مديريّة الشرطةِ، وظل يُستخدم "سِجْنا نسائيًّا" إلى أن حُوّل إلى مستشفى خاصٍّ بالنساء لاحقًا[١٧٩].

ظلَّ مشفى الوقف بعد ذلك أحدَ عشرَ عامًا تابعًا لإدارة مديريّةِ الشرطةِ، وكان يَتِمُّ مداواةُ المريضاتِ هناك من قِبَلِ أطباءِ الشرطةِ، وأحيانًا كان يتمُّ فتحُ قسمِ العياداتِ من أجلِ المريضاتِ اللاتي يفِدْنَ من الخارجِ، والخلاصةُ أن مشفى الوقفِ أصبحَ بعيدًا كلَّ البعدِ عن مهمّتِهِ الأصليّةِ التي تمّ تحديدُها في اللائحةِ التي تُنَظِّمُ عملَ الوقفِ.

وفي آذار/مارس من عام (١٨٨٠م) تمَّ نقلُ إدارةِ مشفى الوقفِ وعُهِدَ بها إلى البلديَّةِ، كما تمَّ نقلُ النساءِ المريضات والمحكومِ عليهنَّ إلى مشفى النساءِ الجديدِ الذي أصبحَ مكانُهُ في منطقةِ "السلطانِ أحمد".

وفي هذا التاريخ وبسببِ ضيقِ المكانِ والحالةِ المتردّيَةِ التي وصلَ إليها مشفى الوقف، فقد تمَّ الإعدادُ لتأسيسِ مشفًى جديدٍ، ولذلك فقد

(١٧٩) في ذلك الوقت كانت هذه المستشفى تعرف بين الناس باسم (زندان خَاصَكي).

أُمِّمَتْ عِدّةُ بناياتٍ مجاورةٍ للمشفى وخُصِّصَتْ لتكونَ جزءًا منه، وفي عام (١٨٨٥م) قامت البلديَّةُ بشراءِ قصرِ "مورالي (*Moralı*) علي شفيق بك" وتمَّ ضمُّه هو الآخرُ إلى المشفى، وبهذا الشكل فقد ارتفعتِ الطاقةُ الاستيعابيَّةُ لمشفى الوقفِ لتصلَ إلى مائة سريرٍ، وفيما بعد فقد انضمَّ أيضًا إلى مساحةِ المشفى قصرُ "صالح باشا". (١٨٠)

خمسةٌ وثلاثون عامًا في إدارة الشؤونِ الدينيَّةِ

تمَّ في عام (١٨٨٤م) افتتاحُ المشفى الجديدِ، وبعد أن تمَّ الانتهاءُ من التعديلاتِ التي بدأت في عام (١٨٨٣م) جرى البدءُ في نقلِ المرضى إلى المستشفى الجديدةِ، وأما المشفى القديم فقد أصبحَ خاويًا تمامًا من وجود أيِّ شخصٍ.

وفي عام (١٩٤٦م) رُمّم مشفى الوقف، وأُعِيدَ إلى الخدمةِ من جديدٍ في صورةِ عيادةٍ طِبِّيَّةٍ، وفي عام (١٩٦٣م) تمَّ البَدْءُ في عمليَّةِ إصلاحٍ وترميمٍ للمشفى امتدت أحدَ عشرَ عامًا إلى أن تمَّ الانتهاءُ منها بالكامل عام (١٩٤٧م)، وقد شملتْ هذه الاصلاحاتُ كلَّ أنحاءِ المجمَّعِ، وبناءً على الاتفاقيَّةِ التي وُقِّعَتْ بين المديريَّةِ العامَّةِ للأوقاف و" كلوب مديترينيان (*Club Mediterraineen*)" فقد تمَّ إجراءُ عمليَّةِ ترميمٍ وإصلاحاتٍ جديدةٍ على كلِّ أجزاءِ المجمّعِ باستثناءِ الجامعِ وذلك بهدفِ استخدامِها لأغراضٍ سياحيَّةٍ، ولكن وبسببِ ردودِ الفعلِ الواسعةِ التي صدرت على الأخصِّ من سُكَّانِ المنطقةِ فقد عدَلَتِ الأوقافُ عن قرارِها وقامت بتخصيصِ المجمّعِ ليكونَ تحتَ إدارةِ رئاسةِ الشؤون الدينيّةِ من أجلِ استخدامِهِ في صورةِ "مركزٍ تعليميٍّ للخدمةِ العامَّةِ"، واعتبارًا من يوم العشرين من كانون

(١٨٠) نُورَانْ بِلْدِيرِمْ، "مستشفى ومستوصف خَاصَكِي"، موسوعة إسطنبول من الأمس إلى اليوم، إسطنبول -٢٠٠٣م، الجزء الرابع، ص ٢.

الثاني/يناير من عام (١٩٧٦م) فقد تمَّ البَدْءُ في تنظيم دوراتٍ تعليميّةٍ مِهنيّةٍ للوُعَّاظِ والمُفتين في البنايات التابعةِ للمجمّعِ والذي أصبحَ يلعبُ دورًا كبيرًا في هذا المجالِ تحتَ اسم "مركز خَاصَكِي التعليمي الخاصّ بإسطنبول التابع لرئاسةِ الشؤون الدينيَّةِ". (١٨١)

وفي العام (٢٠١٠م) أصبحَ "مجمَّع خَاصَكِي" خاويًا حيث تمّ نقلُ المركز التعليميّ منه إلى بنايةٍ جديدةٍ في منطقة "بنديك (*Pendik*)" في إسطنبول، وأصبحَ "مجمّع خَاصَكِي" يقِفُ منتظرًا أن تحدّدَ المديريَّةُ العامَّةُ للأوقافِ الجهةَ الجديدةَ التي سيكونُ الوقفُ تابعًا لها.

حمامُ "خَاصَكِي" الكائنُ في منطقةِ السلطانِ أحمد

من الآثار التي أمرت "السلطانة خُرَّم" بتشييدِها في إسطنبول حمامٌ رائعٌ يقعُ في ميدانِ "السلطان أحمد" حيث يُعْرَفُ هذا الحمام باسم حمامِ "أياصوفيا" أو حمام "خَاصَكِي"، ويُفهَمُ من الكتابةِ الموجودةِ على هذا الأثرِ التاريخيّ الذي نراهُ في الناحيَةِ الجنوبيّةِ من "أياصوفيا" والذي صُمِّمَ من قِبَلِ المعماريّ "سِنَان" أنَّ عامَ إنشائِهِ يعودُ إلى سنةِ (١٥٥٦م/٩٦٤هـ)(١٨٢).

إنَّ هذا الحمامَ المُزْدَوَجَ الذي يُعتَبَرُ من أكبرِ الحمَّاماتِ العثمانيَّةِ في إسطنبول تمّ تشييدُه في المكان الواقعِ بين جامعَي "أياصوفيا" و"السلطان أحمد" بسببِ ضيق المساحة المجاورةِ لجامعِ "أياصوفيا" وأيضًا بسببِ عدم إمكانيَّةِ إنشاء حمَّامٍ آخرَ بالقربِ منه.

لقد صُمِّمَ المبنى على هيئةِ حمّامٍ مزدوجٍ، ويمتدُّ بشكلٍ مستقيم من الشمالِ إلى الجنوبِ، وأحدُ قِسْمَيْ الحمام -المماثلين لبعضِهما البعضِ

(١٨١) سَمَا دُوغَانْ، المصدر السابق، ص ٣٧٢.

(١٨٢) م. بَاهَا طَانْمَانْ (*Tanman*)، "حمام خَاصَكِي"، موسوعة إسطنبول من الأمس إلى اليوم، ٢٠٠٣م. الجزء الرابع، ص ٤.

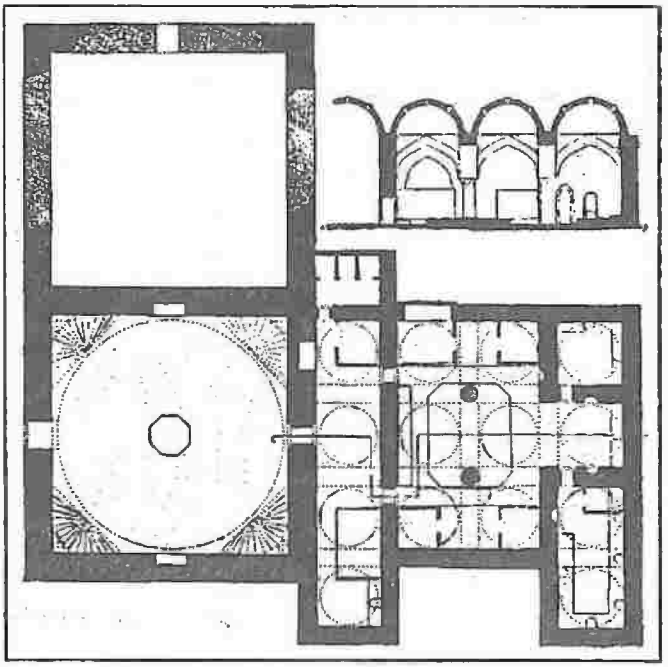

مخطط "حمام خَاصَكِي السلطانة خُرّم" خَطّهُ *Heinrich Glück*

باستثناءِ بعض التفاصيل- مُخصَّصٌ للرجال وهو الموجودُ في ناحيةِ جامِعِ "أياصوفيا"، أما الآخر فهو مخصّصٌ للنساء وهو الموجود في ناحيةِ جامعِ "السلطان أحمد"، وفي الجزءِ الشماليّ من القسمِ الخاصّ بالرجال الذي يأخُذُ مدخلُه شكلَ جامعٍ نجدُ هناك رواقًا مؤلفًا من خمسِ وحداتٍ، وهو ما لا نراه موجودًا على الإطلاقِ في الحماماتِ الأخرى(١٨٣).

وتحتَ "البسملةِ" التي نجدُها مكتوبةً على بابِ مدخَلِ القسمِ الخاصّ بالرجالِ نجدُ أبياتًا من الشِّعْرِ يعودُ تاريخُها إلى عام (٩٦٤هـ) تُنسَبُ إلى شاعرٍ لقبُهُ خدائي (*Hüdâî*)".

"لو كنتَ ترجو رؤيةَ جنةِ الفردوسِ والرضوانِ،
فتعالَ إلى حمامِ السلطان لتتنزَّهَ وتجدَ الصفاءَ.
فمن داخلِ النهر الجاري يخرجُ السلسبيلُ ونهرُ الكوثرِ،
وألحانُ هذا الماءِ للشاربِ هيَ ﴿**وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا**﴾
عندما دخل "خدائي" إليه شاهدَ حديقةَ جنةِ عدنٍ في الحال
لقد حكى التاريخُ عنه أنه حمامُ الجنةِ السلطانيّ الأبديّ)(١٨٤)

نوافيرُ على شكلِ الحِيتان

يذكرُ لنا الرحالةُ "أوليا جلبي" أن حمامَ "خَاصَكِي" الذي كانَ يُعتبرُ حمامًا لأعيانِ وأشرافِ القومِ، والذي كان يُعَدُّ أيضًا من أكبرِ وأجملِ حماماتِ السوقِ بإسطنبولَ، كان قد أُنشِئَ من أجلِ تأمينِ وتوفيرِ النفقاتِ التي تحتاجُها أوقافُ "السلطانة خُرَّم".

(١٨٣) طَانْمَانْ، المصدر السابق، ص ٤.

(١٨٤) أحمد آقْكُونْدُوزْ (*Akgündüz*) - سعيد أوزتورك (*Öztürk*)، "جامع آيا صوفيا من الكنيسة إلى المتحف"، إسطنبول، ٢٠٠٦م، ص ١٥٦

وقد كانت توجدُ-سابقًا- في وسطِ القسمِ الخاصّ بالرجالِ ميضأة في ساحتِها ثلاثُ نوافيرَ كلٌّ منها على شكلِ الحيتان، يفيضُ منها الماءُ في حوضٍ رخامٍ مُجزَّإٍ إلى شرائحَ، وقد كانت هذه النافورةُ الفريدةُ -التي من المحتملِ أنها جُلِبَتْ غنيمةً من الغربِ- مصونةً ومحفوظةً إلى أن تنتهي عمليّةُ ترميمِ الحمامِ التي أجرِيَت عام (١٩٨٦م) لِتُعادَ إلى مكانِهَا وسطَ الحوضِ من جديد(١٨٥).

أما أهمُّ ما يميّزُ القسمَ الخاصّ بالنساءِ من الحمامِ عن القسمِ الخاصّ بالرجال هو كونُ مدخلِهِ متَّجِهًا نحو الجهةِ الغربيَّةِ، كما أنَّ هذا القِسْمَ قد صُمِّمَ بحيث يكون بدون رواقٍ، إن الفسيفساءَ الحجريَّةَ الملوّنةَ الموجودةَ في مصاطبِ التدليكِ، والأعمدةَ الرخاميّةَ الخلَّابَةَ والأحواضَ التي تعكِسُ ملامِحَ الأسلوبِ الكلاسيكيّ تُبَيِّنُ وتُوضِّحُ لنا خصائِصَ حمام "خَاصَكِي" الفريدةَ والتي استطاعت أن تحافظَ على رونقِها وتبقى إلى يومِنا هذا. (١٨٦)

حمامُ تحوَّلَ إلى خزانٍ للبنزين

لقد ظلَّ الحمامُ قابعًا في قلبِ منطقةٍ سكنيّةٍ مزدحمةٍ حتى حدث حريقُ "إسحق باشا" الذي وقع عام (١٩١٣م)، حيث أصبح الحمام في أسوإِ حالاتِه وأيامِهِ خصوصًا بعدَ الحريقِ، وبحلول عامي (١٩١٦-١٩١٧م) تمَّ البدءُ في إجراءِ مجموعةٍ من التعديلات بعد أن طُرِحَت فِكرةُ تحويلِ الحمامِ إلى متحفٍ، فتمَّ فتحُ ممرٍّ في الحائطِ الذي كان يفصِلُ قسمَ الرجالِ عن قسمِ النساءِ، كما جُدِّدَ الرواقُ الموجودُ في مدخلِ قسمِ الرجالِ، لكن فيما بعدُ تمَّ التخلّي عن فكرةِ تحويلِ الحمامِ إلى متحفٍ. (١٨٧)

(١٨٥) سَماوِي أيِجَه (*Semavi Eyice*)، " حمام خَاصَكِي "، إسطنبول، ١٩٩١م، الجزء الرابع، ص ٢١١.

(١٨٦) طَانْمَانْ، المصدر السابق، ص ٤.

(١٨٧) أيِجَه، المصدر السابق، ص ٢١١.

وقد كانت هناكَ فكرةٌ لهدمِ حمامِ "خَاصَكِي" في عصرِ الجمهوريّةِ، إلا أنَّه نَجَا من تلكَ المحاولةِ، وعلى الرغمِ من ذلكَ نجدُ أنَّ الحمّامَ قد تعرَّضَ للتخريبِ والدمارِ بسببِ استخدامِهِ استخداماتٍ غيرِ مناسبةٍ حتى إنَّ أرضيّاتِهِ قد دُمِّرَ قسمٌ منها، وفي أوّلِ الأمرِ أصبحَ هذا الأثرُ التاريخيُّ مَخْزَنًا للجازِ والبنزين تابعًا للبلديّةِ، ثم تحوَّلَ بعد ذلك إلى مخزنٍ للورقِ تابعٍ لإحدى المطابعِ الحكوميّةِ، ووصلَ الأمرُ إلى أكثر من هذا حيث نجدُ أنّ الحمام قد بلَغَ بِهِ الحالُ إلى درجةِ أنه قد صارَ يُستخدَمُ لفترةٍ كمخزنِ فحمٍ[١٨٨].

وفي عام (١٩٨٨م) نُظِّمَتْ في الحمام بعضُ المعارضِ الفنّيَّةِ المعاصِرَةِ ضمنَ فعاليات "البينالي (*Bienal*) الفنِّ الدولي" والتي تُقامُ كلَّ سنتين وذلك بعد إجراءِ أكثر من عمليّةِ ترميمٍ سابقةٍ في الفترةِ الممتدّةِ من (١٩٥٧م) وحتى (١٩٥٨م).

* * *

إن المبنى -مبنى دار الفنونِ التاريخيّ- العظيمَ الواقعَ في القسمِ المقابلِ للجهَةِ الشرقيّةِ من "أياصوفيا" والذي كان يُسْتَخْدَمُ كدارٍ للقضاءِ، إن ذلك المبنى قد تحولَ إلى رمادٍ تمامًا في الحريق الذي اندلع ليلة الرابع من كانون الأول/ديسمبر من عام (١٩٣٣م)، وفي أثناءِ ذلك الحريقِ تمكَّنَ البناءُ المُجاورُ وهو حمَّامُ "خَاصَكِي" من أن ينجُوَ من خطرٍ كبيرٍ كادَ أن يصيبَهُ هو الآخر، فقد تمكَّنَ رجالُ الإطفاءِ في اللحظةِ الأخيرةِ من إنقاذِ هذا الحمامِ قبل أن يصِلَهُ الحريق، حيثُ تسنَّى لهم واستطاعوا إخلاءَ المكانِ من الموادِ المشتعلةِ كالبنزينِ والجازِ والتي كانت تُخَزَّنُ في ذلك الوقتِ بالحمام[١٨٩].

(١٨٨) أَيِجَه، المصدر السابق، ص ٢١١.

(١٨٩) إلْحَانْ آقْجَايْ، " جامع أياصوفيا "، أنقرة – ١٩٦٨م، ص ١٠١.

إن حمـامَ "خَاصَكِـي" يُعتبَـرُ مـن الآثارِ الهامَّـةِ التي خلَّفهـا لنا تاريخ العمـارة العثمانـيّ، حيث يُعتبر هذا الحمّـامُ في نوعِهِ من أعظمِ الآثارِ التي شيَّدها المعماريُّ "سِنَان" ويُعَدُّ بجدارةٍ رمزًا حقيقيًّا لفنِّ العمارةِ العثمانيَّةِ.

دار "خَاصَكِي" لإطعامِ المحتاجينَ في القدسِ الشريف

لقد تمكّنَتْ "السلطانة خُرَّم" التي تعتبر من أقوى نساءِ الدولةِ العثمانيّةِ العليّةِ في القرنِ السـادسَ عشـرَ مـن بناءِ مُجَمَّـعٍ خيريٍّ فـي مدينةِ القدسِ الشريف إلى جانبِ مكَّةَ المكرَّمة والمدينةِ المنوّرة.

ويتألَّـفُ هـذا المُجمَّـعُ مـن جامـعٍ وخـانٍ للقوافـلِ ودارٍ لإطعـامِ المحتاجينَ ملحقٍ بها خمسٌ وخمسون غرفةً.

وبالإضافـةِ إلى القسـمِ الرئيسِ مـن دارِ إطعـامِ المحتاجين والمحاطِ بالجـدرانِ فقـد كان هنـاك أيضًا سلسـلةٌ مـن البنايـاتِ الموجـودةِ ضمنَ المُجَمَّـعِ الخيـريّ والتي شَـملتِ المطبـخَ والفرنَ وبيـتَ المونَةِ ومخزنَ المعـدَّاتِ ومخـزنَ الفحْمِ وقاعةَ الأكلِ ودوراتِ الميـاهِ إلى جانبِ الخانِ والاسْطَبْلِ[١٩٠].

* * *

تقـعُ دارُ إطعامِ المحتاجين التي بدأَتْ تُقَدِّمُ خدماتِها في القدسِ على شارعٍ يُسمَّى "عقبة الست"، لكنّ اسمَ السيدةِ الذي يُطلَقُ على هذا الشارعِ

(١٩٠) مسجد الوقف ليس من المساجد التي تقام بها صلاة الجمعة، ولكنه أسّس من أجل أن يتمكن العاملون بدار إطعام المحتاجين والضيوف الذين يحلون بشكل مؤقت بخان القوافل وكذلك المقيمين في المناطق والأحياء القريبة من أن يقوموا بأداء فروضهم الدينية، أما ما يخصّ خان القوافل فإن هناك معلومات قليلة للغاية تتعلق به، ومن المرجّح أن هذا الخان كان يعمل في إطار من كرم الضيافة التقليدي حيث يقدّم الطعام ومكان الإقامة مجّانًا لمدّة أربعة أيام للتجار والحجاج وغيرهم من المسافرين.

لا علاقةَ له بـ"السلطانة خُرَّم" حيثُ إنَّهُ يعودُ إلى السيّدةِ "طنشق" إحدى سيّدات العصرِ المملوكيّ التي شيَّدَتْ البنايةَ الأولى في تلك المنطقةِ في نهاياتِ القرنِ الرابعَ عشر، وعندما فتحَ العثمانيُّونَ القدسَ الشريف وذلك القصرَ المملوكيَّ الموجودَ بها وجدوا بداخلِ البنايةِ عدَّةَ صالوناتٍ واسعةٍ إلى جانبِ غُرَفٍ كثيرةٍ وكذلك بئرَ ماءٍ، بعد ذلكَ قامَ العثمانيُّونَ بتوسيعِ تلك البنايَةِ باتجاهِ الشرقِ والجنوبِ، وكي يتمكَّنَ الوقفُ من تقديمِ الخدمةِ المنشودةِ فقد أُضيفَ إليه سبيل كبيرٌ نوعًا ما إلى جانب غُرَفِ الطبْخِ، ومعنى هذا أنّ "السلطانة خُرَّم" لم تأمُرْ هنا ببِناءِ بنايةٍ جديدةٍ تمامًا، وإنما هو تعديل للبناء القديم.

وبعدَ أن بدأَ الوقفُ في تقديمِ خدماتِهِ خُصّص إيرادُ الكثيرِ من القرى في كلٍّ من "القدسِ" و"غزةَ" إلى جانبِ إيرادِ الحمَّام المزدَوَجِ ليُنفق على احتياجاتِ دار إطعامِ المحتاجين بعد أن تمَّ شراؤُها.

الطعامُ كان يوزَّعُ على المسيحيّين أيضًا

كان عدد الأشخاصِ المكتوبة أسماؤُهم في قائمةِ الأفرادِ بالوقفِ عام (١٥٥٧م) -وهو العام الذي كُتِبَتْ فيه اللائحةُ التي تُنَظِّمُ عملَ هذا الوقف- تسعةً وأربعين شخصًا، وقد كانَ لكلِّ واحدٍ من هؤلاءِ الأشخاصِ لقبٌ وعملٌ وراتبٌ محدَّدٌ ونصيبٌ من الطعامِ الذي يُطهى في مطبخِ الوقفِ، وكان العاملون بهذا الوقفِ مسؤولينَ جميعًا عن الأمورِ الماليّةِ المتعلّقةِ بمتعلَّقات الوقفِ وكذلك الحفاظِ على سلامةِ مبانيهِ وتشغيلِهِ بشكلٍ سليمٍ.

وفي أوائلِ الخمسينيَّاتِ من القرنِ السادسَ عشَرَ كان حَسَاءُ الأَرُزِّ والبرغلِ اللذان يُطْهَوَانِ في قدورٍ ضخمةٍ يوزّعانِ صباحًا ومساءً في

دار إطعامِ المحتاجين -أكثرِ أجنحةِ الوقفِ نشاطًا- على ما يقرُبُ من خمسمائةِ شخصٍ، وكان الأكلُ اليوميُّ الذي يُوَزَّعُ يتضمَّنُ تقديمَ نوعينِ من الحَسَاءِ مع الخبزِ يُطبخانِ مَرّةً في الصباحِ وأُخرى في المساءِ.

وكان الوزنُ المعياريُّ المُحدَّدُ لرغيفِ الخبز -المصنوعِ من القمحِ والملحِ والماءِ- بعد أن يخرجَ من الفرنِ تسعينَ درهما[١٩١] وفي المساءِ كانت تُقَدَّمُ وجبةُ حَساءِ البرغلِ الذي يُطهى بإضافةِ الزبدةِ والحمُّصِ والبصلِ والملحِ والكمُّون والكوسا- وقد يتوفّرُ نوعٌ آخرُ من الخضروات حسبَ الموسِمِ- والزبادي والليمون أو الفلفل الأسود، أما في المناسباتِ الخاصَّةِ فقد كانتِ الموائدُ العامرةُ تُقامُ للجميع. [١٩٢]

وبناءً على ما ذُكِرَ في لائحةِ الوقفِ والتي تَعودُ إلى عام (١٥٥٧م) فقد كان يُشتَرَطُ في يومِ عاشوراءَ أن يتِمَّ إعدادُ شوربَةٍ تملأُ أربعة قُدُورٍ مع استعمالِ كلِّ الموادِ اللازمةِ والضروريَّةِ من أجلِ إعدادِ الطعام،[١٩٣] وحيث إن الأكلَ كان يخرجُ من مطبخِ دارِ إطعامِ المحتاجينَ مرتينِ في اليوم فقد كانَ عددُ مَنْ تُصْرَفُ لهم وجباتُ الطعامِ يُقاربُ الخمسَمائةِ شخصٍ، وهذا العدَدُ يشملُ المقيمينَ في خانِ القوافِلِ الذي يضمُّ خمسًا وخمسين غرفةً إلى جانبِ العاملينَ في الوقفِ هذا بالإضافةِ إلى أربعمائةِ فقيرٍ ومحتاجٍ.

لقد كانَ هناكَ الكثيرُ ممَّنْ يترَدَّدُونَ على دار "خَاصَكِي" لإطعامِ المحتاجين، وأيًا كانَ نوعُ الناسِ الذين يَفِدُونَ على الدارِ ويَدُقُّونَ البابَ

(١٩١) حيث إن كل درهم كان يزن حوالي ثلاثة جرامات، فإن كل رغيف كان يخبز من كمية عجين تزن ما يوازي مائتين وسبعين جرامًا.

(١٩٢) كان ذلك في الليالي والأيام الخاصة مثل ليالي الجمعة "الليالى التي تصل يوم الخميس بالجمعة" وشهر رمضان وأمسيات الليالي المقدسة وأعياد الفطر والأضحى، في تلك المناسبات كان يقدم الخبز كما هو الحال في باقي الأيام لكن بدلًا من الشوربة كان يُقدّم نوع من الحلوى يسمى "زردة" إلى جانب خبز على هيئة حبّات، ومهما كانت مكانة الضيف فقد كانت توضع هذه الأكلات التي ينتظرها كل الوافدين على كل الموائد.

(١٩٣) أمي سنجر (*Amy Singer*)، الأعمال الخيرية في العصر العثماني، إسطنبول، ٢٠٠٤م، ص ٦٩-٧١.

فقد كانَ هناك بالطبعِ فائضًا من الأطعمةِ المجهَّزةِ والمُعَدَّةِ في انتظارِ مَنْ سيأتي، لقد كانَ يتمُّ عملُ كلِّ ما يلزمُ، بحيثُ إن المحتاجينَ لم يكونوا يخرجون أبدًا جَوعَى من دارِ "السلطانة خُرَّم" المخصَّصَةِ لإطعامِ المحتاجين، إذ كان يُخشى من أن يتساءَلَ المحتاجونَ: "ألا تستطيعُ السلطانةُ أن تُساعِدَ الجميعَ؟".

في الأعوامِ اللّاحقةِ استمرَّتْ أيضًا تلك الدارُ في الأعمالِ الخيريَّةِ دون توقُّفٍ، فمثلًا يذكرُ أحَدُ الرحالةِ الفرنسيِّينَ ويُدعى "موريسون (*Antoine Morison*)" ما شاهده عام (١٧٠٥م) قائلًا:

> "لقد كان يُقدَّمُ كلَّ يومٍ ولكلِّ فقيرٍ يأتي إلى هناك حوالَي نصفُ كيلو من الخبزِ بالإضافةِ إلى زيتِ الزيتون وصحنٍ من الشوربةِ المطهوَّةِ مع بعض الخضرواتِ والتي كانت تُجَهَّزُ في قدورٍ عملاقةٍ لم نرَ لها مثيلًا من قبلُ ". (١٩٤)

ويذكُرُ نفسُ الرحالةِ الفرنسيِّ أنَّ الطعامَ كانَ يُوَزَّعُ في دارِ إطعام المحتاجين بشكلٍ متساوٍ سواءٌ أكان ذلك للمسلمين أو المسيحيِّين ومعنى هذا الكلام أنَّ المسيحيِّين أيضًا لم يُسْتَثْنَوا من لائحةِ الوقف(١٩٥).

* * *

وعلى الرغم من مرورِ أربعمائة وأربعةٍ وخمسين عامًا على تشييدِ هذا البناء الذي يُعرَفُ بين الناسِ باسم دارِ السلطانة "خَاصَكِي" لإطعام المحتاجين أو "التَّكِيَّةِ"، إلا أننا لا نزالُ حتى اليوم نرى هذا الصرحَ واقفًا على قدميهِ في قلبِ مدينةِ "القدس" القديمةِ التي تُحيطُ بها الأسوارُ، وابتداءً من الأعوامِ التي تَلَتْ عام (١٩٢٠م) وحتى يومِنا هذا فقد تحوَّلت

(١٩٤) سنجر، المصدر السابق، ص ٣.

(١٩٥) سنجر، المصدر السابق، ص ٨٩.

دار "خَاصَكِي" لإطعامِ المحتاجين إلى "دار الأيتام الإسلامية لتعليم المِهَنِ والمهارات"[١٩٦] وعلى الرغم من حدوثِ هذا التحوُّلِ إلا أنَّ توزيعَ الطعامِ قد استمرَّ حتى إن اليونسكو (*UNESCO*) أيضًا في الأعوام التي تَلَتْ عام (١٩٥٠م) قد قامت بتوزيعِ الطعامِ في نفسِ المكانِ، وما زال حتى اليوم يتمُّ وبشكلٍ يوميٍّ توزيعُ الطعامِ على المحتاجين في دارِ الأيتام[١٩٧].

(١٩٦) كانت "دار الأيتام الإسلامية لتعليم المهن والمهارات" حيث كانوا يتعلمون فيها الحِرف الصناعية...

(١٩٧) يوسف أفندى ناتشى (*Natshe*)، "الأثر العظيم، ذكرياتي مع دار السلطانة خَاصَكِي لإطعام المحتاجين (*My Memories of Khassaki Sultan or The The Flourishing Edifice*)"، القدس، ٢٠٠٠م، ص ٧.

كلُّ مخلوقٍ لا ريبَ أنَّهُ يفنى،

وكلُّ متسامٍ في الآخرة لا يندمُ ،

سيذهبُ الجميعُ ولا أحد على وجهِ الأرضِ يبقى،

لأنَّ الأجَلَ لا محالةَ آت.

فلا باقيَ إلا الله عزَّ وجلَّ.

"السلطانة مِهْرِمَاهْ"